كتب قومية

صفحات من تاريخ العرب

بقلم

الدكتور جمال الدين الرمادى

Bibliotheca Alexandrina
مكتبة الإسكندرية
0198089

كتب قومية

صفحات من تاريخ العرب

بقلم

الدكتور جمال الدين الرمادي

الكتاب الأول

مقدمة

يجتاز المجتمع العربى فى العصر الحاضر دوراً جديداً له خصائصه ومميزاته ، فى تاريخ البشرية ، ويعمل ولاة الامر على حمايته من أدران الماضى وتطهيره من التحكم والاستغلال ويهدف الى تطبيق الاشتراكية السليمة وهى فى معناها على حد تعبير السيد الرئيس جمال عبد الناصر عبارة عن نواح سلبية ونواح ايجابية والسلبية تتمثل فى القضاء على آثار الماضى البغيض ، والنواحى الايجابية وتتمثل فى البناء للمستقبل الذى ينشده كل المواطنين

فالاشتراكية فى المجتمع العربى الجديد هى القضاء على الاقطاع والاحتكار وسيطرة رأس المال ، والقضاء على الاستغلال من الداخل والخارج والاشتراكية فى معناها الايجابى هى اقامة اقتصاد وطنى ثم العمل على تنمية هذا الاقتصاد ، ثم تطوير هذا الاقتصاد ليواجه حاجات المجتمع والعمل على اقامة عدالة اجتماعية .

هذا هو نهج مجتمعنا العربى الجديد فى جلب المصلحة اليه ، ورد المفسدة عنه ، وهو فى نهضته ووثبته لايتنكر للماضى ولا يسخر من المجد العربى القديم والحضارة العربية التالدة انما يستمد منها طاقته وقوته ، فالعرب استطاعوا أن يقهروا العالم شرقه وغربه بعقيدتهم السمحة ، فاستسلمت لجيوشهم شعوب ودول ، وهوت تحت أقدامهم عروش وأمم ، وذلت لهم ملوك وأكاسرة وأذهلوا العالم بانتصاراتهم وما آتوه من معجزات سطرها لهم التاريخ بأحرف من نور ، ورفعوا راية الاسلام خفاقة فى العالمين ؟ وتروى قصص البطولة والجهاد والحرص على الموت والاستشهاد فى سبيل الله

دورهم فى هذا السبيل، فمكن الله لهم فى الارض واستخلفهم فيها حتى أتى على الاسلام حين من الدهر ، فقد المسلمون فيه ايمانهم بالله ، واختلطت عليهم عقيدتهم ، فاعتبروا دينهم عبادات تؤدى وفرائض تقضى ونسوا أن الاسلام صبر وجهاد وأنه ما فرضت سائر العبادات الا لاعداد المسلم المؤمن لخوض المعارك دفاعا عن دينه ووطنه وحريته وعزته ٠

والمجتمع العربى الجديد يحاول أن يستفيق من هذا السبات العميق الذى ران عليه منذ أجيال طويلة ويقلب صفحات المجد والبطولة التى تألق بها تاريخه الحافل، وازدهرت بها أيامه الخوالى ويعلم أنه يصارع عدوا واحدا هو الاستعمار ومن أجل القضاء عليه يجب أن ينضوى العالم العربى تحت لواء الاتحاد والجهاد وتؤمن كل أمة بأن بقاءها وعزها مرتبطان ببقاء وعزة المجموع ٠

وفى الصفحات القادمة سنحاول أن ترسم صورة لحضارة المجتمع العربى فى عصور ازدهاره وازدهائه ودور العرب فى خدمة الانسانية والمعارف البشرية حتى نتخذ منهم أسوة حسنة فى تطوير مجتمعنا الجديد ٠

ثم نسرد بعد ذلك قصة التآمر فى الوطن العربى لتكون عبرة لمن يعتبر وليؤمن المضللون بأن شمس الحق لا بد طالعة، وسيملأ نورها الأكوان ، وسيغمر سناها شتى الاقطار والامصار ، فاذا صروح الظلام تتهاوى على الارض كأنما زلزلت الارض زلزالها واخرجت الارض اثقالها ٠

ان الوحدة العربية هى أقصى أمانينا ، ومتجمع آمالنا، وهى لا بد واقعة ان عاجلا أو آجلا ، فان ما يربطنا من تاريخ مشترك . . وكفاح متصل وجهاد ذقنا مره وغضاضته، وسعدنا بنكهته وحلاوته وان ما يجمعنا من لغة واحدة ، وهدف واحد أقوى من كل محاولة تريد تفريقنا وتهدف الى تشتيتنا ، وترمى الى بث الضعف فى صفوفنا ٠

لنأخذ من التاريخ عبرة وعظة ، ولنؤمن بأن الوحـــدة هي العروة الوثقى التي يجب أن نسعى اليها ونتمسك بها ، ولا نمكن الاستعمار أو أعوان الاستعمار أن ينفثوا سمومهم في كفاحنا .. فالكفاح شجرة مباركة جذورها في الارض ورأسها فيالسماء ترويها التضحيات الصادقة ، والجهود المخلصة، والعمل على إيجادمجتمع ديموقراطي اشتراكي تعاوني تزال فيه الفوارق بين الطبقات وتمحى فيه تلك الثغرات الواسعة والفجوات الرجعية التي توهن فيعضدنا وتوزع جهودنا .

فمهما حاول خصوم القومية العربية بشتى الوســـائل أن يوهنوا من كفاح الأمة بصورة أو أخرىفان النصر قريب وهو آت لا ريب فيه ولا مفر منه ويعز الله بنصره من يشاء .

الفصل الأول

مجتمع اسلام وسلام

أن الباحث فى تاريخ الحضارة الانسانية يجد آثارا كبيرة لحضارة الاسلام فى الغرب ، كما يجد كثيرا من الدعوات الغربية فى السلام وحقوق الانسان وحرية الافراد والشعوب قد جاء بها الاسلام من قبل ولم تكن الا أصداء لما تضمنه القرآن الكريم من حكم غالية ومواعظ سامية ودستور عظيم فى السلوك الانسانى والقواعد الاخلاقية والقوانين الدولية ·

فالاسلام دين محبة وسلام واخاء ووفاء ، وهو يحض على السلام بل أنه نفسه مشتق من السلام وقد دعا الله سبحانه وتعالى الى السلام وكانت ليلة القدر التى هى خير من ألف شهر هى ليلة السلام فقال تعالى : « سلام هى حتى مطلع الفجر » .

كما دعا بالسلام على الانبياء والمرسلين فقال فى سورة الصافات : «وتركنا عليه فى الآخرين سلام على نوح فى العالمين» · وقال أيضا : «وتركنا عليه فى الآخرين سلام على ابراهيم» وقال كذلك : « وتركنا عليه فى الآخرين سلام على آل ياسين» ·

كما بشر المؤمنين الصالحين بالجنة التى عرضها السموات والأرض وجعل السلام تحية لهم وتعظيما فقال فى سورة النحل : «سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون» كما قال فى سورة الحجر : « ان المتقين فى جنات وعيون ادخلوها بسلام آمنين » .

كما جعل الله سبحانه وتعالى السلام وسيلة لمخاطبة الجاهل السفيه الأثيم فقال فى سورة الفرقان : «واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » ·

ولم يكن الاسلام فى يوم من الأيام يستخدم القوة والعنف

لنشر مبادئه بل لم يجعل الحرب ذريعة من ذرائع نشر الدعوة الاسلامية فقال فى كتابه العزيز : « وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فان أسلموا فقد اهتدوا وان تولوا فانما عليك البلاغ » .

فالله سبحانه وتعالى اذن لم يجبر المسلمين على استخدام القوة فى نشر دينهم بل أمرهم أن يدعوا الى سبيل ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة ويجادلوا بالتى هى أحسن كما أمر الله تعالى المسلمين بألا يستخدموا وسائل البطش والتعذيب فى معاملة أعدائهم وفعل الرسول بمصداق قوله تعالى : «وما أنت عليهم بجبار ، فذكر بالقرآن من يخاف وعيد» ، وجاء فى صحيح مسلم عن بريده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : «اغزوا فى سبيل الله قاتلوا من كفر بالله اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الوليد ولا أصحاب الصوامع » .

وفي القرن العشرين قامت المنظمات الدولية لنشر السلام وتجنب الحرب فقامت عصبة الامم والامم المتحدة من أجل السلام وتجنب ويلات الحرب ففشلت الاولى وأصبحت أداة فى يد المنتصرين فى الحرب العالمية الاولى لارغام المقهورين على الرضوخ لشروط الصلح مما دفع المانيا الى الانسحاب من العصبة عام ١٩٢٣ كما عجزت عن حماية الصين من اعتداء اليابان عليها وانشائها امبراطورية فى منشوكو كما عجزت عام ١٩٣٥ عن حماية الحبشة من اغارة الايطاليين عليها ثم انتهى الامر بها الى الزوال وظهرت على مسرح السياسة الامم المتحدة عقب اجتماع مؤتمر يالتا بين ٣ ، ١١ فبراير عام ١٩٤٥ ثم مؤتمر سان فرانسيسكو فى ٢٥ ابريل ١٩٤٥ وقد استقر الرأى بعدئذ على انشاء هيئة دولية عامة للمحافظة على السلم والامن لان انشاءها ضرورة لمنع الاعتداء او لازالة الاسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى تؤدى الى الحرب وذلك بالتعاون الوثيق المستمر بين الشعوب المحبة للسلام كافة .

وقد جاء فى ديباجة ميثاق الامم المتحدة : « نحن شعوب الامم المتحدة وقد آلينا على أنفسنا أن ننقذ الاجيال المقبلة من ويلات الحرب التى جلبت على الانسانية مرتين فى خلال جيل واحد احزانا يعجز عنها الوصف وان تؤكد من جديد ايماننا بالحقوق الانسانية للانسان وبكرامة الفرد وقدره وبما للرجال والنساء والاطفال والامم كبيرها

وصغيرها من حقوق مساويه وان بين الاحوال التى يمكن فى ظلها تحقيق العدالة واحترام الالتزامات الناشئة عن المعاهدات وغيرها من مصادر القانون الدولى وأن ندفع للرقى الاجتماعى قدما وان نرفع مستوى الحياة فى جو من الحرية أفسح وفى سبيل هذه الغايات اعتزمنا أن نأخذ أنفسنا بالتسامح وان نعيش معا فى سلام وحسن جوار وان نضم قوانا كى نحتفظ بالامن والسلم الدوليين » .

وان من ينعم النظر فى هذه الديباجة يجد أن الاسـلام دين السلام ولا يستخدم الحرب الا للضرورة القصوى وقد كان من أول الاعمال التى قام بها النبى بعد الهجرة الى المدينة ان آخى بين المهاجرين والأنصار وأقام حسن الجوار بين المسلمين ومن سالمهم ووقع الرسول بنفسه مع قريش فى عام الحديبية معاهدة لحقن الدماء وصيانة الحرمات وحسن العلاقات بين الجانبين وقد أمر الله تعالى بحسن معاملة المسالمين فقال : «لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين» . كما نهى عن الاعتداء والتشفى بالتمثيل والتعذيب فقال : « ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » وقال تعالى : « ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل انه كان منصورا .

كما أن الاسلام حارب العصبيات والافكار الجاهلية الاولى التى كانت تدعو الى التعصب والتحيز وتبالغ فى سمو جنس على جنس أو ارتفاع قبيلة على قبيلة أو سيادة جماعة على جماعة فقال عز وجل «انما المؤمنون اخوة» كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم : «لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى» كما دعا الاسلام الى عدم التفرقة بين الألوان والاجناس والشعوب والقبائل وقضى على العنصرية وأثر عن الرسول أنه قال : «اسمعوا وأطيعوا ولو ولى عليكم عبد حبشى» ولم يفرق الاسلام بين مسلم ومسلم الا بالتقوى كما أوصى الاسلام الافراد والدول باحترام العقود والعهود والمواثيق فقال تعالى : «يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود» كما قال عز وجل : « وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ان الله يعلم ما تفعلون » .

بل ان الاسلام دعا الى احترام المعاهدات بدقة وأمانة حتى مع

الوثنيين فقال عز وجل: «الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم أن الله يحب المتقين » .

واذا كان الغرض من ميثاق الأمم المتحدة هو اقامة الشورى بين الدول حتى لا يستبد القوى بالضعيف فان الله تعالى قال فى سياق مدح المؤمنين : « وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون»

كما قال : «فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر » .

واذا كان ميثاق الامم المتحدة ينص على تحقيق التعاون الدولى على حل المسائل الدولية ذات الصبغة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والانسانية وعلى تعزيز احترام حقوق الانسان والحريات الاساسية للناس جميعا والتشجيع على ذلك اطلاقا بلا تمييز بسبب الجنس أو اللغة أو الدين ولا تفريق بين الرجال والنساء فان الاسلام دعا الى التآلف والتعاطف بين شعوب العالم فقال تعالى فى كتابه العزيز : «انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » وليس من شك فى أن فى هذا التعارف تبادل المنافع على اختلاف أنواعها وشتى صنوفها ومن حكمته عز وجل خلق السموات والارض واختلاف الألسنة والالوان على نحو ماجاء فى كتابه العزيز : « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم» .

كما قال تعالى فى الحرية الدينية : «فذكر انما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر » وقال عز وجل : « لكم دينكم ولى دين » .

وجعل للأنثى مثل حظ الذكر فى الثواب والعقاب فلها فى الآخرة درجات المتقين أو دركات الاشرار المفسدين «من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون» .

ولقد نص القرآن الكريم على تساوى الجنس البشرى فى أصله ومنبته فقال تعالى : « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس

واحدة ، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء» كمانص الكتاب العزيز كذلك على كرامة الانسان فقال تعالى : « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » .

كما يعتبر الاسلام الناس سواسية كأسنان المشط ويحارب الأنانية والاثرة والمنافع الذاتية ، والرغبات الشهوانية فقال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فى حديث شريف « لايؤمن أحدكم حتى يحب لاخيه مايحب لنفسه » .

وهذه دعوة صريحة الى المحبة والمودة والاخاء بين الناس جميعا وازالة الفوارق والانانية والأثرة بين النفوس البشرية .

أضف الى ذلك أن الاسلام دعا الى عدم انتقاص حقوق الناس أو البخس بها أو اغضاء النظر عنها ، وفى هذا يقول الله عزوجل فى كتابه العزيز « ولاتبخسوا الناس اشياءهم ولاتفسدوا فى الأرض بعد اصلاحها ، ذلكم خير لكم ان كنتم مؤمنين» .

وهكذا ..

وهكذا كان الاسلام أولا وقبل كل شيء المصدر الاول للتشريع الدولى بل لقد تنبه الى كثير من القوانين الدولية قبل أن تتنبه اليها الدول الحديثة ومثال ذلك ان الاسلام يستوجب اعلان الحرب ومنع الغدر فقال تعالى : «واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ان الله لايحب الخائنين» فهذا المبدأ الاخلاقى لم يستطع القانون الوضعى أن يقره الا منذ سنوات معدودة وكان ذلك عام ١٩٠٧ على اثر انعقاد مؤتمر لاهاى الذى نص على ألا تبدأ الاعمال الحربية الا بعد اخطار سابق لالبس فيه يكون اما فى صورة اعلان حرب مسبب أو فى صورة انذار نهائى يذكر فيه اعتبار الحرب قائمة بين الطرفين وكذلك الحال بالقياس الى عدم التنكيل بالأسرى ووجوب العناية بالمرضى وقد نصت بعض الاتفاقات الدولية التى عقدت فى هذا القرن على هذه الامور التى دعا اليها الاسلام منذ قرون طويلة .

وقد ضم القرآن الكريم بين جنباته مايبهر رجال الاقتصاد فى العالم فتحدث الاسلام عن عوامل الانتاج كوسائل يسخرها البشر

لخدمتهم ورفاهيتهم وطالبهم بأن يسخروها ويأكلوا منها ومن ثمرها وجعل عوامل الانتاج خدما للبشر لا البشر خدما للانتاج أو عوامل الانتاج فالطيبات حق لجميع من يمشى فى مناكب الارض ويستخدم وسائل الانتاج فقال تعالى : «وسخر لكم مافى السموات والارض جميعا» . كما قال عز وجل : «ياأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم واشكروا لله ان كنتم اياه تعبدون» .

وقال تعالى : «وهو الذى جعل لكم الارض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه» .

وقد قامت النظريات الغربية فى الاقتصاد على كثير من هذه المبادىء الانسانية التى تضمنها القرآن الكريم والاسلام الحنيف وتشدق بها الغربيون على أنها نتاج جديد وفكرة مبتكرة ولكنها فى الواقع وحقيقة الامر تعود الى الاسلام فى سداها ولحمتها كما تعود الى كلمات الله عز وجل فى كتابه المبين الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

الفصل الثانى

الفتوحات الاسلامية فى أوربا

للاسلام فضل عظيم على الحضارة الحديثة لايمكن تجاهله أ اغضاء النظر عنه ، وقد أدى اتصال المسلمين بالغرب الى انعكاس الحضارة الاسلامية على أوروبا ، مما كان له أبعد الأثر فى تطور الفكر العالمى .

ويرجع اتصال المسلمين بأوربا الى العصور القديمة فى التاريخ بيد أن سلطان المسلمين اتسم بطابع الغزو منذ فتح الاندلس فى العصر الأموى .. اذ حاول المسلمون في العقد الثاني من القرن السابع الميلادى غزو اسبانيا من ناحية أفريقيا ، فشنوا غاراتهم على الشواطىء الأسبانية فى عهد الامبراطور القوطى «فمبا» عام (٦٧٢ — ٦٨٠ م) .

وعندما تمكن موسى بن نصير من فتح بلاد المغرب ، فكر فى غزو أسبانيا وقد شجعه على هذا العمل الكونت « جوليـاف » الذى تحالف مع حزب «آخيلا» لنزع «رودريك» آخر أباطرة الدونة القوطية فى أسبانيا عن الحكم .

فطلب موسى بن نصير من الوليد بن عبد الملك أن يأذن له فى القيام بحملة على أسبانيا فأذن له الوليد فى شىء من التحفظ ونصحه بأن يتأكد من صدق نية «جوليان» مخافة أن تصاب جيوش المسلمين بكارثة فى هذه البقاع الفسيحة فى أوربا .

وأرسل موسى بن نصير «طريف بن مالك» على رأس جيش مكون من خمسمائة محارب عام ٧١٠ م (٩١ هـ) لارتياد هذه المناطق فغزا الجيش الثغور الجنوبيـة فى بلاد الاندلس ، وعاد بكثير من الغنائم والأسلاب . وقد ناصر «جوليان» جيش طريف بن مالك فى معاركه ، وأمده بكثير من المدد مما حقق له النصر ، فشجع هذا

الصنيع موسى بن نصير على متابعة الغزو مرة أخرى فجند جيشاً لجباً قوامه سبعة آلاف مقاتل جلهم من البربر ، وولى القيادة للقائد العربى المشهور طارق بن زياد وكان طارق فى هذه المدينة حاكماً لمدينة طنجة واشتهر بالعدل والشجاعة والهمة العالية .

وعبر طارق البحر عام ٩٢ هـ فى سفن «جوليان» وألقى مراسيه فى اقليم البحيرة بجنوب اسبانيا واستعد لمناجزة عدوه فى عقر داره وكان الامبراطور «رودريك» فى هذه الآونة مشغولا بقمع الثورة الداخلية التى شبت فى أرجاء البلاد ابتغاء خلعه عن العرش بيدانه عندما أدرك الخطر المحدق به من جانب المسلمين ، سارع الى تجهيز جيش كبير يبلغ عدده زهاء مائة ألف مقاتل ، ونزل به الى ساحة المعركة ولكن جيش «رودريك» لم يكن منظما متماسكا ، وكانت الحروب الاهلية قد فتت فى عضده فلم يبد ثباتا فى القتال وانتهى الامر بهزيمته هزيمة منكرة أمام جيش طارق بن زياد .

عاد «رودريك» الى تنظيم جيشه وحضر اليه كثير من المدد فلما رأى طارق بن زياد هذه الجموع المتكاثرة من جيش (رودريك) طلب من موسى بن نصير أن يمده بعدد من المقاتلة فأرسل اليه موسى خمسة آلاف مقاتل ، والتقى طارق بجيش «رودريك» على ضفاف وادى نهر «بكة» Wady Bekka فى يوليو عام ٧١١م (٩١هـ) وطفق طارق يشن هجماته على جيش «رودريك» حتى أسلمه للهزيمة وعلى أثر انتصاره فى هذه المعركة مضى يزحف على مدن اسبانيا ، فوقعت فى يده مدينة اشبيليه وقرطبة وطليطلة وغيرها من المدن الاسبانية .

ولما ترامت الانباء الى موسى بن نصير بانتصار طارق بن زياد، تملكته الغيرة لان فتح الاندلس سوف يكون مقرونا باسم غير اسمه فجهز جيشا لاتمام هذا الفتح حتى يكون له هذا الشرف وكتب الى طارق بن زياد يأمره بأن يقبع فى مكانه ولا يتقدم من زحفه حتى تصل اليه أوامر أخرى .

ولكن طارق بن زياد لم يلق بالا الى كتاب موسى بن نصير ومضى فى بلاد الأندلس من نصر الى نصر لانه رأى أن توقف الزحف سوف يمكن الاعداء من معاودة الهجوم على كتائبه ويعرض جيشه لخطر داهم ويعطى لاعدائه الفرصة للنيل منه ورده على اعقابه » .

وعندئذ سارع موسى بن نصير الى التوجه الى الاندلس على رأس جيش لجب في يونيو عام ٧١٢ م (٩٣ هـ) وأخذ يطوق بجيشه المدن الاسبانية ففتح أشبيلية مرة أخرى ، وحاصرها شهرا وكانت قد رفعت راية العصيان على جيش طارق بن زياد ـ كما فتح غيرها من المدن الاسبانية ثم لحق بجيش طارق بن زياد ، وعندما التقى بطارق لامه على عدم اذعانه للامر ، وطالبه بما استولى عليه من غنائم وأسلاب ٠٠ بل أنه تمادى في اهانته فوضعه في السجن ٠

وعز على أنصار طارق بن زياد أن يسجن قائدهم وهو الذى حقق هذا النصر المؤزر في اسبانيا ، فعولوا على انقاذه واخراجه من معتقله واستطاع طارق بن زياد بفضل أنصاره أن يتصل بالخليفة الوليد بن عبد الملك الذى بث اليه شكواه فكتب الوليد الى موسى بن نصير أن يطلق سراحه ، ويرده الى عمله ، ويسند اليه القيادة مرة أخرى ٠

ونفذ موسى بن نصير أمر الخليفة الوليد وسار موسى وطارق معا لفتح شمال بلاد الاندلس ، وبعد أن زالت الجفوة بينهما ، ففتحا اقليم أرغونة angon وقشتالة Cantile وبرشلونه Borce lone وغيرها من المدن الاسبانية حتى بلغا جبال البرانس فى أقصى الشمال فتم بذلك فتح شبه الجزيرة ، عدا تلك الاقاليم الجبلية الواقعة فى الشمال الغربى التى آوى اليها بعض أشراف القوط ورجال القبائل الثائرة التي رفضت أن تخضع لحكم المسلمين فى اسبانيا ٠

وعول موسى بن نصير بعد تحقيق هذا النصر المبين ، على أن يتوجه بجيشه الى فرنسا حتى اذا ما تم له الغزو اتجه الى القسطنطينية شرقا ، وبذلك يصبح البحر الابيض المتوسط بحيرة عربية خالصة ، تدين لها شعوب أوربا جميعا بالخضوع والولاء.

وعندما وصلت أنباء هذه المطامع الى الوليد بن عبد الملك ، أمر موسى بن نصير أن يخفف من آماله فالفرصة غير مواتية فى تلك الظروف لتحقيق هذه الآمال العريضة واستدعى الوليد موسى بن نصير وطارق بن زياد ولكن موسى قبل رحيله الى دمشق نصب ابنه عبد العزيز واليا على بلاد الاندلس فأظهر من العدل والمساواة ماأقلق خصومه فعولوا على الانتقام منه ٠٠ ولا سيما أنه ساوى بين جميع

طبقات الامة دون تمييز فى الجنس أو الدين وشجع العرب على مصاهرة المسيحيين وضرب هو المثل على ذلك فتزوج من أرملة «رودريك» التى بقيت على دينها .

ودبرت على اثر ذلك مؤامرة لقتله ، وبعد مصرعه أقام الجند قائدهم أيوب بن حبيب ابن أخت موسى بن نصير واليا على بلاد الاندلس فاتخذ قرطبة عاصمة للبلاد وعمل بها بعض الاصلاحات غير أن مدة ولايته لم تطل .

وعندما تولى حكم الاندلس «السمح بن مالك» عام (١٠٠–١٠٢ هـ) اخترق جبال البرانس وزحف على اقليم بروفانس فى فرنسا وحاصر مدينة تولوز فترة طويلة ولكنه اضطر أخيرا الى الانسحاب .

وعندما تولى «عبدالرحمن الغافقى» الحكم فى الاندلس عام ١١١ هـ عاد نجم المسلمين فى الاندلس الى البزوغ والارتفاع .. اذ قام بكثير من الاصلاحات التى رفعت الروح المعنوية للعرب فى هذه البقاع وجهز جيشا للقتال فى بلاد غالة فخرج ثمانية آلاف مقاتل، واستولى على دوقية «اكتيانيا» وهى مقاطعة مستقلة جنوب اللواء .

وجمع شارل مارتل جيشا كبيرا اصطدم بالمسلمين فى معركة «بوانيه» وهناك دارت المعركة الخالدة المعروفة فى التاريخ باسم معركة «تور» ويسميها مؤرخو المسلمين «بلاط الشهداء» عام ٧٣٢ م (١١٤ هـ) التى أبلى فيها المسلمون بلاء حسنا ضربت به الامثال وكاد النصر يتوج هامات المسلمين فى هذه المعركة وبذلك يتمكنون من فتح أوروبا برمتها ونشر الاسلام ، بيد أن الدوائر دارت عليها فى نهاية المعركة الطاحنة وأصيب عبدالرحمن الغافقى بسهم أرداه قتيلا فانتشرت الفوضى بين الصفوف ودبت الفرقة بين النفوس وازدادت المطامع فى الاستيلاء على الحكم مما بعث الاضطراب فى الجيش العربى فاضطر الى التقهقر والانسحاب ازاء هجمات شارل مارتل .

ولولا هذه الهزيمة لتغير وجه التاريخ واستطاع العرب أن يمدوا سلطانهم الى بلدان أوربا كافة واستطاع الاسلام أن يدخل هذه المناطق .

وقد عمل المسلمون فى الاندلس على نشر العدل والمساواة وازالة

الفوارق بين الطبقات وقد رحب طبقة العبيد ورقيق الارض أيما ترحيب بالفتح الاسلامى واعتبرته خلاصا لها من نير الاستبداد ورقه الاستعباد وفكاكا لها من تلك القيود التى وضعها أسيادها القوط باغين طاغين ظالمين بل ان بعضهم اعتنق الاسلام ونالوا الحقوق التى أتيحت لغيرهم من المسلمين واصبحوا بنعمة الله اخوانا .

وفى طليطله بأسبانيا نشأ أكبر مركز للدراسات الاسلامية ونقل الآثار العربية الى اللغات الاوربية وقد نشأت فيها بمساعى رئيس الاساقفة «ريموند الاول ١١٢٦–١١٥١» مدرسة نظامية للترجمة لمع فيها مترجمون ماهرون ووفد اليها من الجزر البريطانية مايكل سكوت Michael Scot وروبرت أوف Robert of Chester وقد نقل روبرت كتاب الجبر للخوارزمى كما نشر أول ترجمة لاتينية للقرآن الكريم (الراهب بطرس المحترم) .

كما انتشرت العلوم العربية فى لياج Liege وجورز Gorze وكولون Cologne فى جنوب فرنسا .

وقد عمل المسلمون فى الاندلس على نشر الاسلام . وانشاء المساجد وتشجيع العلم حتى قال العالم دوزى لم يكن يوجد فى بلاد الاندلس رجل أمى واحد فى الوقت الذى لم يكن فى أوربا من يلم بالقراءة والكتابة الا طبقة القسس ، وقد أنشأ الحكم الثانى ٢٧ مدرسة مجانية بلوازمها لكى لايبقى أحد من رعيته محروما من نعمة العلم ، وكانت جامعة قرطبة أشهر من الجامعة النظامية فى بغداد .

لم يقض العرب تماما على الثوار القوط فى بلاد الاندلس اذ اعتصم فريق منهم بالجبال وشكلوا وراء تلك السلسلة الجبلية فى استورياس حكومة ثورية وشرعوا يشنون الحملات تلو الحملات على العرب . ولم يلبث أن عضدهم ملوك الفرنجه وامدوهم بالجيوش فاستعادوا جليقيا Galice وقسما من قشتاله Castilles حتى أصبح العرب محوطين من أماكن مختلفة بقوات الثوار .

ومما ساعد هؤلاء الثوار فى أداء مهمتهم ذلك الخلاف الناشب حول العرش الأموى . وتلك الثورات والفتن التى سببت فى أنحاء مختلفة من الاندلس – حتى تسنى للاسبان الهجوم على العرب . . فاستولوا على ثلث ما استولى عليه العرب . أما الثلثان الباقيان فقد

قام عليهما ملوك الطوائف واشهرهم نبوزيرى فى غرناطه Grenada ٤١٠ هـ ١٠١٩ م وبنو عامر فى بلنسيه Valence ٤١٢ هـ أى ١٠٢١ م وبنو عباد فى اشبيليه Seville ٤١٤ هـ ١٠٢٣ م وبنو هود فى سرقسطه Saragosse .

وقد صدق فى هؤلاء الملوك قول الشاعر ابن الخطيب :

حتى اذا سلك الخلافة انتثر   وذهب العين جميعا والاثر

قام بكل بقعة مليك   وصاح فوق كل غصن ديك

ولم يأت النصف الثاني من القرن الحادى عشر للميلاد حتى تولى الملك الفونس الثالث ملك قشتاله قيادة الخلفاء فدخل طليطله عام ٤٧٨ هـ أى ١٠٨٥ م واتخذها عاصمة لدولته ودعا الأماكن التى افتتحها قشتاله الجديدة ، وارسل يهدد المعتمد بن عباد وصاحب قرطبه واشبيليه وأعظم ملوك الطوائف ، وشعر الأندلسيون بسوء المصير وقال ابن العسال الطليطلى :

حثوا أرواحكم يا أهل اندلس   فما المقام بها الا من الغلط

السلك ينثر من أطرافه دارى   سلك الجزيرة منثورا من الوسط

وقد عقدوا مجلسا فى قرطبة اجمعوا فيه على استنجاد دولة المرابطين ولكن جهودهم كانت عبثا .

وفى هذه الفترة التى كان ملوك الطوائف يضمحل شأنهم كان يوسف بن تاشفين سلطان البربر ٤٥٣ـ٥٠٠ هـ قد قبض على ناصيتى المغرب الاقصى والأوسط ، وبنى مدينة مراكش ليقيم فيها ولما أتته رسل الأندلسيين يطلبون النجدة اجتاز بجيش كثيف الى اسبانيا وغلب الاسبان فى معركة يقال لها الزلاقة عام ٤٩٩ هـ ١٠٨٦ م ، ولما شاهد يوسف بن تاشفين هذه الانتصارات العظيمة التى حققها بنفسه حدثته نفسه أن يسيطر على الاندلس ، فكان الأندلسيون كالمستنجدين من الرمضاء بالنار ، وتمكن يوسف بن تاشفين من الاستيلاء على مدينة «افراغه» فى شرق الأندلس ، وعلى مدينة « لشبونه » فى غرب الأندلس ، واستطاع أن يسترد الحصون التى أضاعها ملوك الطوائف ، ولكن لم يلبث أن ظهرت دولة أخرى فى

عهد ابنه تاشفين ٥٣٧هـ ٥٣٩ هـ فضت على دولة المرابطين في المغرب واسبانيا ، وتم لها القضاء الاخير في عهد حفيده اسحاق ٥٤١ هـ ، ١١٤٦ م ٠

ولم يهمد الفرنج عن عمل المحاولات المتواصلة لاخراج المسلمين من اسبانيا ، وكان البابا يدعو الى اخراج «الهراقطة» من الاندلس، وقد استمرت المناوشات بين دولة الموحدين والفرنج فترة طويلة حتى استطاعوا أن يخلوا كثيرا من المدن الاندلسية ، التي استولى عليها العرب . وكان آخر الامارات التي ظلت في حوزة العرب في اسبانيا هي امارة «غرناطة» وكانت في يد بني الاحمر ، ولما انتهى الملك الى أبي عبد الله آخر ملوك غرناطه كانت مملكة أسبانيا المتحدة قدقامت عقب أن تزوج فرديناند بايزابيلا ، وقد استولت هذه المملكة على ضواحي غرناطة وحاصرتها فترة طويلة حتى لم يجد أبو عبد الله مفرا من الصلح ، ولكن قائده موسى أبى ذلك ، وطلب أن يحارب حتى آخر قطرة من دمائه ، وناشد الملك ورجال الدين أن يمهلوه ريثما يهجم بجنده على الأعداء المحاصرين، فاما أن يخترق صفوفهم، واما أن يموت ولكن هذا كله لم يجد فتيلا ، وأخيرا لم يجد الملك مناصا من المفاوضة في شأن الصلح ٠فأرسل أبو عبد الله وزيرا الى ملك الاسبان لهذا الغرض فاستقبله الملك استقبالا حسنا وعرض عليه شروط الصلح وكانت سبعة وستين شرطا ، فعاد بها الوزير الى أبي عبد الله فعلم أن أهمها أن يكتب أهل غرناطة البيعة لصاحب قشتاله فيسلموه المدينة ومفاتيحها ، ومافيها من الحصون على أن يؤمن المسلمون في النفس والاهل والمال ، ويقيموا شريعتهم على ماكانت عليه، ويفك أسار جميع الأسرى ، الاسبان في غرناطة ٠

وقد اضطر ابو عبد الله الى الاذعان لهذه الشروط ، ولكن موسى قائد الجيش ابى عليه ذلك ، والتفت الى الجند وقال : اتركوا العويل والبكاء للاطفال والنساء ، وهيا الى ساحة الحرب ، بقلوب أضراها اليأس ، ولنمت هناك موت الابطال ٠٠ أنأبى الموت في دار الشرف والجهاد ، أفضل أن نرى مدينتنا تدخل في حوزة العدو ونحن مكتوفو الأيدى لانبدى حراكا ، أم أن نموت في الدفاع عنها موت الشهداء ؟

أمانىء نفوسنا ، وفقدنا تلك الحمية التى كانت تتقــد فى صدورنا ٠٠ اذن فكيف نرضى بهذه الشروط الشائنة ، وبطبع نير الذل والهوان على أعناقنا ، انى أرى اليأس مستوليا على القلوب ٠٠ وأبواب النجاة موصدة فى الوجوه ، على أن للأبى الحر ملجأ يلجــأ اليه اذا سدت فى وجهه سبل النجاة ، ألا وهو الموت ، فانى لأوثر أن أموت حرا كريما على أن أعيش عبدا ذليلا ، أظننتم أن الفرنج يصدقون فى وعودهم لكم ، وان ما يبديه ملكهم الآن من الرقــة واللين يدوم بعد أن يملك دياركم ، ويضع نيره الثقيل فى أعناقكم، لا والله . فلا تخدعوا أنفسكم ، ان الموت لأخف مما سيحل بنا من البلايا والأهوال ، فكيف تخافونه ، وان تخافوا فخـــافوا نهب مدينتكم ، وتدنيس مساجدكم ، وانتهاك أعراضكم ، واشتداد الظلم عليكم ، فذلك ما ستلقونه من عدوكم ، وسيرى الذين منكم يخافون أن يموتوا اليوم موت الابطال ماهو أشد من الموت عذابا أما أنا فوالله لن أرى ذلك ان الموت لابد منه أن عاجلا أو آجلا فلنقض ما بقى لنا من هذه الحياة بالثأر من الاعداء ، هلموا الى الموت ، ان امنا الارض فاتحة صدرها الرحيب لتضمنا اليها ، وان ضاق صدر الارض عنا ، ولم يكن لنا فيها قبور . فيكفى أن تكون السماء غطاء لاجسادنا ، هلموا أيها الاسياد ، فلا يقال عنا ان رجال غرناطة جبنوا عن الموت فى ساحة الجهاد ٠ »

فهب معه فريق من المســلمين وظــلوا يجاهدون كالبنيان المرصوص بيد أن الخيانة أدت دورها، وفى الثامن من شهر يناير عام ١٤٩٢ م ، استعد فرديناند وايزابيلا لدخول غرناطة ، واستلام مفاتيح غرناطة من سلطانها المغلوب على أمره ، فتقدما تحفهما كوكبة من الفرسان ، وقد اتشحا بمطارف الأبهة والجلال ، وانتظرا مقدم ابى عبد الله ومعه المفاتيح الموجودة التى طالمـا تاقا الى استلامها ، فلما أزفت الساعة اقبل أبو عبدالله شـاحب الوجه ذاهب اللون وكان ممتطيا صهوة جواده فلما اقترب من فرديناند ترجل احتراما لشخصه، ولكن فرديناند منعه من ذلك ، فاقترب منه أبو عبدالله وحياه، ثم قال والدموع تترقرق فى مآقيه وتنهمر على صدره فى حركة لاشعورية «أيها الملك العظيم تلك ارادة الله أن نسلمك مدينتنا وديارنا» وقد أصبحنا منذ الآن من رعاياك فاجعل انتصارك علينا مقرونا بالحلم

والعدالة » . ثم انحنى له وقدم له مفاتيح الحمراء فقبله فرديناند وعزاه بكلمة لطيفة . ولكن أبا عبدالله لوى وجهه، وامتطى صهوة جواده واتجه مع رجاله صوب جبال البشرات حيث كانت تنتظره أسرته .

فلما وصل أبو عبدالله الى الجبال وأطل على غرناطه بكى . وهذا المكان أطلق عليه الفرنج « آخر تنهدات العربى » .

وفى أثناء رحيلهم دوى صوت أمه وهى تصيح، عندما شاهدته يبكى « ابك كامرأة على ملك لم تستطع ان تحافظ عليه كرجل »

واسدل الستار على أمجادهم الساحقة فى هذه البقعة من الارض وقضى الاختلاف والتناحر بين الملوك والأقيال على ملك المسلمين الذى كان يمكن أن يمتد ويتسع حتى يشمل أوربا برمتها

هذا وقد اتصل المسلمون بأوربا اتصالا آخر يختلف عن اتصالهم بالاندلس ويختلف عن الطريق التى سلكوها من أجل هذا الغرض ، اذ حاولوا دخول أوربا من الجنوب عن طريق ايطاليا ففتحوا جزيرة صقليه وكثيرا من مدن ايطاليا حتى حاصروا «رومية» مقر الحبر الاعظم أو البابا ولم يحاولوا أن يحولوا كنيستها الكبرى الى مسجد كما فعلوا بالجامع الأموى فى الشام او «أيا صوفيا» فى الأستانة .

وقد اتجهت أنظار المسلمين الى صقلية لأنها تقع فى منطقة متوسطة فى البحر الابيض وتربط الشرق بالغرب عن طريق السفن الرائحة والغادية . وكانت ترسو فيها السفن القادمة من صور وقرطاجنة وطرسوس وبيزنطة وغيرها .

وبدأت المحاولات فى عهد معاوية بن أبى سفيان فقدهم المسلمون بالغزو عام ٦٦٩م وشنوا غاراتهم على مدينتهم «سراقوسة» وغيرها من مدن الجزيرة ولما عمد موسى بن نصير الى فتح أسبانيا أنفذ ابنه عبد الله بجند الى جزائر البحر الابيض المتوسط ، فغزا ميورقة ، ومنورقة ، وسردينية وصقلية وعاد بكثير من الغنائم والأسلاب .

ويروى فى سبب فتح صقلية أن قائدا من حامية الروم ،

اسمه « يوفيميوس » أحب راهبة في بعض الأديرة كان قد وقع نظره عليهـــا فى الدير فهرب بها وتزوجها فنما خبره الى صاحب القسطنطينية فأحل دمه وامر بقتله ففكر القائد فى الانتقام وشن بحملة ثائرة في الجزيرة ورفع راية العصيان ولكن الدوائر كـادت تدور عليه ويخفق فى ثورته ويقع فى أيدى أعدائه وينفذ فيه حكم الاعدام فاستنجد بالعرب وأرسل الى زيادة الله يحرضه على غـزو الجزيرة كمـا حرض « جوليان » صاحب « سبته » موسى بن نصير على فتح الأندلس .

فتردد « زيادة الله » فى اجـــابة هذا الطلب ولكنه آثر أن يستشير أصحابه فرجحت كفة أصحابه بالقيام بهذا الغزو واحتجوا بأن الروم قد نكثوا المعاهدة المعقودة بين الطرفين فجهز «زيادة الله» حملة عهد بقيادتها الى «أسد بن الفرات» قاضى تونس وانضم اليها كثير من قبائل المسلمين البربر وركبوا البحر فى عمارة مؤلفة من مائة مركب أقلعت من مرفأ « سوسة » فى ١٣ يونيو عام ٨٢٧ م (٢١٣ هـ) .

ووصلت الحملة الى مدينة « مازارا » فاستولى عليها العرب ثم توجهوا الى مدينة « سراقوسة » أهم مدن صقلية وكانت مدينـــة حصينة واسعة الأرجاء ممتدة النواحي محيطها أحد عشر ميـــلا ونصف ميـــل وتضم طائفة من الأبراج والحصون المنية والمعاقل الضخمة والأسوار الشامخة التى تضرب فى عنان السماء وقـــد صمدت المدينة ازاء هجمات المسلمين صمودا جعل أسد بن الفرات يطلب المعونة فحضر اليه المدد واستأنف هجماته على المدينة فى قوة لا تلين ولكن الصقليين اظهروا من الحذق والمهارة العسكرية ماأقلق جنود المسلمين حتى جاع المسلمون وأكلوا لحوم الخيل .

وتحالف المسيحيون فى الجزيرة مع الجنود الاهليين على اخراج العرب باشارة من الامبراطور ميخائيل حاكم القسطنطينية وحدث فى هذه الآونة أن أدركت المنية « القائد أسد بن الفرات » قائد تلك الحملة فدبت الفرقة بين صفوف المسلمين واضطروا الى التقهقر والانسحاب

وهجم المسلمون بعد ذلك على « كاسترو جيوفانى » وهـــو حصن منيع على جبل وعر فيه حامية من الروم والصقالبة فخندق

المسلمون حوله وحاصروه وفصلوه عن بقية أجزاء الجزيرة ونشروا حكمهم فى هذه المنطقة باسم الدولة الاغلبية وسكوا العملة بهذا الاسم وعندئذثارت نفوس الصقالبة على المسلمين فرجعوا الى «مينيو» واشتد أوار الحرب بين الفريقين عامين كاملين ·

ثم جاءت عمارة عربية من الأندلس بقيادة «أصبغ بن وكيل» أمدت العرب بالمعونة والمئونة. وجهز «زياد الله» عمارة من ثلثمائة سفينة وعشرين ألف مقاتل لهذا الغرض · وأبحرت هذه العمارة من شواطىء أفريقيا عام ٨٣٠ م (٢١٥ هـ) وقتلت هذه الحملة « ثيودوتس » قائد الروم أمام أسوار « مينيو » بيد أن الوباء تفشى بين الجند تفشيا ذريعا وأصيب كثير من العرب بالهلاك فعادت الحملة أدراجها الى أفريقيا والأندلس بعد أن تكبدت خسائر فادحة فى الأموال والأرواح ·

ولكن شرذمة من جند المسلمين شنت الغارة على مدينة «بالرم» واستطاعت هذه الشرذمة أن تفتحها وتجعلها قصبة للحكم وتنشر وجوه الاصلاح فى كل مكان.. تبنى المنازل والقصور وتحفر الترع وتغرس الأشجار وتنشر العدل والمساواة بين الطبقات .

ثم ما لبث أن دب الخلاف بين الجنود المسلمين فادعى جند الأندلس حق الفتح وطلب أن تكون « بالرم » تابعة لبنى أمية فى الأندلس كما ادعى الافريقيون حق الفتح وطلبوا أن تنضوى «بالرم» تحت لواء الأغالبة وكانت الغلبة للطائفة الأخيرة فعين «زيادة الله» أميرا من قبله على الجزيرة ·

واستولى المسلمون على « نابولى » فى ايطاليا وقد أعان أهل نابولى المسلمين على ارتياد شواطىء البحر الادرياتيكى ومهدوا لهم سبيل التوغل فى المدن الايطالية وقد نزل المسلمون عند مصب نهر « بو » وبلغوا أبواب مدينة « رومية » وغيرها من مدن ايطاليا ·

وقد قضت صقلية فى سيادة المسلمين نيفا ومائتى سنة بعضها فى دولة الاغالبة ثم الفاطميين وغيرهم واستقل امراؤها بها حينا ، وتوارثوا حكومتها ، وتنازعوا عليها حتى انقسمت الى مقاطعات وشرع كل أمير ينافس غيره فى مقاليد الحكم وكان على سراقوسة وغيرها عام (١٠٦٠ م) (٤٥٢ هـ) ابن تمنة وكان على

حصن « كاسترو جيوفانى » ابن حواش فتحاربا واشتبك الطرفان فى معارك طاحنة أدت الى انهزام ابن تمنة واستيلاء ابن حواش على مقاطعته ·

أما سائر ايطاليا فقد ظلت أربعة عشر عاما تحت حكم العرب وكان دوقا « مسبوليتو وتوسكانا » ناقمين على البابا فتحالفا مع المسلمين على تجريده من أملاكه وظل أحد البابات يؤدى الجزية للمسلمين عن كرسيه فترة طويلة ·

وبعد ذلك شرع نفوذ النورمان يزداد وينتشر وطفقوا يتدخلون فى شتى أمور الحكم وكانوا قد هبطوا من اسكندنافيا فى القرن التاسع واكتسحوا فرنسا وتولوا الحكم فيها زمنا ·

وفى القرن الحادى عشر ولوا وجوههم شطر ايطاليا تدفعهم المطامع الجريئة والآمال العريضة ويعضدهم ضعف الحكم وانتشار الفوضى فى ايطاليا وما حولها من جزر ·

ولم ينقض النصف الأول من القرن الحادى عشر حتى أصبحت مقاليد الأمور فى أيدى النورمان وأصبحت سياسة ايطاليا رهن اشارتهم وكان نفوذ المسلمين فى هذه الآونة قد بدأ فى التقلص والاضمحلال فساعدهم ذلك على نشر نفوذهم فى تلك المناطق واستولوا على جزيرة صقلية ووصلوا مدينة « بالرم » عام ١٠٧١ م (٤٦٤ هـ) وقد ثبت المسلمون فى قتال النورمان نبات الأبطال وأظهروا من ضروب البسالة والشجاعة والاقدام ما أذهل الألباب · بيد أن بعض الخونة دلوا النورمان على مواقع الضعف فى جيوش المسلمين فشنوا عليها الغارات تلو الغارات حتى وقعت مدينة « بالرم » فى ايديهم بعد حصار عنيف دام خمسة أشهر ·

وفتح النورمان بعد ذلك « سراقوسة » وسلم أهل « كاسترو جيوفانى » الحصن لهم وفى عام ١٠٩١ م (٤٨٤ هـ) لم يبق للعرب فى الجزيرة الا « بوترا » « ونوتوا » فانتقلتا الى النورمان بتوقيع احدى المعاهدات بين الطرفين وبذلك أسدل الستار على حكم المسلمين فى هذه الجزيرة ·

وقد أغرم كثير من ملوك صقلية بالثقافة العربية غراما شديدا ومنهم الملك روجر الأول المتوفى عام ١١٠١ فبالرغم من أنه كان

صرانيا غير مثقف فانه استعان بكثير من المسلمين فى حشد أكثريه المنشأة فى جيشه وشمل العلوم العربية برعايته فقرب الفلاسفة الشرقيين والمتخفين والأطباء ٠

وقد بذ روجر الثانى أباه فى حب العربية وكانت جبته مزينة بالحروف العربية وظل الزى الاسلامى شائعا حتى ولاية حفيده وليم الثانى ١١٦٦ وقد شاهد ابن جبير النساء النصرانيات فى « بالرم » فى ذلك العهد خارجات فى أزياء المسلمات ولدينا من عهد روجر الثانى أقدم النقود التى تحمل تاريخـــا مكتوبا بالارقـــام العـــربية ١١٣٨ ٠

أما فردريك الثانى فقد استعان كذلك بجهود العرب المسلمين واستدعى أهل اختصاص من مصر لاجراء التجارب فى بيض النعام وحضانته وتفقيسه بحرارة الشمس وفى عام ١٢٢٣ وصـــله من السلطان الأشرف الأيوبى آلة بديعة فيها أشكال الشمس والقمر وقد رتبت بصورة تتعين بها الســـاعات فى مواعيد دورانها فأرسل الامبراطور مقابل ذلك دبا وطاووسا أبيض أدهشا الدمشقيين كما أدهشت معاصريهما أهل صقلية الزرافة التى وصلتهم من مصر ٠

وأنشأ جامعة نابولى عام ١٢٢٤ وهى أول جامعة أوربية تأسست ببراءة خاصة وقد أودع فيها مجموعة من المخطوطات العربية النفيسة وجملة من الكتب التى أوصى فردريك بترجمتها الى اللغة العربية ٠

وقد قامت جامعة نابولى بدور كبير فى نشر الثقافة العربيـــة فى الخارج ٠

الفصل الثالث

أثر ثقافة المجتمع العربى فى أوربا

بلغ المسلمون منذ العصور الاسلامية الأولى درجة كبيرة من النبوغ الفكرى والنماء العقلى وعندما بلغ العرب أوربا وجاسوا خلال ديارها كان لهم أثرأى أثر فىالفكر الاوربى والحضارةالغربيةوقد كان هذا الاثر متجليا تارة فى العلوم وتارة فى الفلك ومرة فى الموسيقى والشعر ومرة فى هندسة البناء وما الى ذلك ، وجدير بالذكر أن كتاب « احصاء العلوم » للفارابى كان ذا قيمة كبيرة عند المشتغلين بنظرية الموسيقى عند الاوروبيين وقد أشار « فارمر » الى هذه الحقيقة وأضاف الى أن منفعة الكتاب الحقيقية انما هى فى توجيه انتباه الغربيين الى العلوم العربية التى أقبل عليها طلاب المعرفة منهم وجدوا فى تحصيلها والاستزادة منها • أما ابن سينا فقد تأثر به كثير من مفكرى الغرب وعلى رأسهم «جندبسالينوس» رئيس ديوان الترجمة فى أسبانيا الذى اقتبس من ابن سينا براهينه عن وجود النفس ورموزه الفلسفية • أما ابن رشد فقد سماه دانتى « الشارح الكبير » والمشهور أن مدرسة « بادوا » بايطاليا كانت تنتمى الى مدرسة « ابن رشد » وان سيجر دو برابان كان زعيم المدرسة الرشيدة بايطاليا أبان القرن الثالث عشر • ويعتبر ابن البيطار « توفى سنة ١٢٤٨ م » أشهر علماء النبات والصيدلة فى الاندلس وقد رجع الى مؤلفاته فى هذه المادة عدد كبير من علماء الغرب •

ومن أشهر مؤلفاته كتاب « المغنى فى الأدوية المفردة » وكتاب الجامع فى الأدوية ويعتبر هذا الكتاب الأخير أعظم كتاب فى العصور الوسطى من نوعه ففيه نجد عرضا لنحو ١٤٠٠ مادة منها ٣٠٠ مادة بينها نحو ٢٠٠ نبات أما عدد المؤلفين الذين أورد الكتاب

ذكرهم فيبلغ نحو مائة وخمسين مؤلفا كما أثر التصوف الاسلامى فى أوربا ويكفى أن نذكر متصوفا عربيا مثل ابن عربى ولد فى مرسيه عام ١١٦٥ ولمع فى أشبيليه حتى عام ١٢٠١ م وكان له أثر كبير فى حركات الفكر الغربى فى أوربـــــا اذ كان رائدا من رواد المدرسة الاشراقية التى آمنت بأن الكون جوهر فرد كما آمنت بشمول الألوهية ووحدة الوجود ٠٠

كما اعتقد ابن عربى بأنه ليس هناك الا مرشد واحد للمتصوف الحقيقى وهو النور الداخلى ومن هنا فهو يجد الله الحـــــق فى كل الديانات ٠

وأثرت هذه المدرسة فى حلقات الصوفية فى فارس وتركيا كما أثرت فى مدرسة فلاسفة النصارى للعصور الوسطى أى المدرسة الأغسطينية وفى أفراد منها مثل ٠

دنس سكوتس Duns Scotus

وروجر باكون Roger Bacon

وريموندلل Raymondlull

وقد فاض سيل المعارف الأندلسية فى القرن الثانى عشر على أوربا كلها حتى ان بعض الكلمات العربية شاعت فى المعـــــارف والعلوم الغربية ومثال ذلك كلمة شراب Syrup قيل أنها أخذت من كلمة شراب العربية أما لفظه « صودا » التى كانت تستعمل فى اللغة اللاتينية فى العصور الوسطى بمعنى وجع الرأس فمستقاة من كلمة الصداع العربية ومن الألفاظ الكيمياوية Alchohol وهى مستمدة من كلمة الكحول العربية والتوتى Tntty وهى مستقاة من كلمة التوتياء العربية والامبيق Alembi وهى مستمدة من كلمة الامبيق العربية ٠

وفضلا على هذه الألفاظ العالمية فقد ظهرت فى اللغات الأوربية مجموعة أخرى من الألفاظ ذات الأصل العربى فى شتى نواحى الحياة والاجتماع ومثال ذلك كلمة القطن Cotton أو الحرير الموصلى mualin الحرير الغزى Gawse أو الحرير الدمشقى Damas او الجلد المراكشى morocco أو الجبة Jupe أو العطر Attard أو

الشراب Syrup أو الأرز Rice الليمون Lemoa أو السكر Sgrua أو الفندق Fouda والقطيفة Al catifa والرطل Arratel والقباء Gadam وقد أشار العالم ابانيز الى أن عصر النهضة مدين للحضارة الأندلسية قبل الحضارة الايطالية التى أتت فى أعقابها وذلك لان عصر النهضة أو الرنيساس لم يكن عصر تجديد للفنون الاغريقية انما كان عصر تجديد فى الحياة العملية والمرافق الصناعية والتجارية .

ومن الحقائق الواضحة أن أبناء أوربا كانوا يتعلمون فنون الأنغام من العرب فى الاندلس بل انهم نقلوا بعض الألفاظ العربية الى لغاتهم الأوربية ومن ذلك كلمه Lute أى العود وكلمة نكر Naker من النقارة وكلمة Redec من الرباب وهلم جرا وقد شاع فى أوربا كذلك الفن العربى فى النقش وأطلق عليه الغربيون Arabesque بل ان بعض القلاع التى شيدها أهل الغرب فى أوربا كانت تحمل الطابع الاسلامى العربى ولاسيما بعد أن أطلعت الحروب الصليبية التى دارت بين الشرق والغرب أهل أوربا على فنون العرب وأساليبهم فى بناء القلاع والحصون .

أما فى ميدان الطب فقد سبق المسلمون الافرنج فى وصف أمراض الجذام وشرح مرض الجدرى والحصبة وعلاجها وعلاج أمراض العين ، بل انهم توصلوا الى معرفة العلاج النفسانى ومن ذلك أن ابن سينا دعى لعيادة فتى مريض لم يهتد الاطباء الى علته فأمر باستدعاء رجل من عرفاء المدينة وتناول يد الفتى يجس نبضها ويرقب وجهه وطلب من العريف أن يسرد أسماء الأحياء فى المدينة فسردها حتى جاء ذكر حى منها فازداد نبض الفتى ثم سأله أن يذكر البيوت التى فى الحى فازداد النبض عند واحد منها فسأله عمن فى البيت من الفتيات وقال لأهل الفتى : زوجوه تلك الفتاة فهذا هو الدواء .

وبنى هارون الرشيد المدارس وبيوت المرضى والصيدليات وأباح الانتفاع بها لعامة الناس وكان طبيبه جبرائيل بن عبد الله بن بختيشوع مكرما لديه وفى أيامه ترجمت كتب الحكمة والطب

تفحص الاطباء فى مدينة بغداد ومنع من لم يكن أهلا من مزاولة هده المهنة • وأنشأ المأمون ندوة علمية وجمع اليه العلماء من كل صوب وحدب وبدل من الاموال مالا يقدر لشراء الكتب وترجمتها الىاللغه العربية فكانت بغداد حينئذ عروس الدنيا ودار العلوم وميـــدان الأدب وقيل أن العلماء والمدرسين فيها وأعضاء ندوتها العلمية بلغوا لذلك سته آلاف . وكان يوحنا ماسويه من مشاهير الأطباء فى العصر العباسى وقد توفى عام ٢٤٣ هـ بعد أن قام بجهود كبيرة فى ميادين الطب • والطريف أن الأطباء العرب توصلوا الى معرفة بعض الآداب التى ينبغى أن تتوافر فى الطبيب مما جعلها الأطباء فى العصر الحديث دستورا لا يحيدون عنه وبيان ذلك أن المتوكل أراد امتحان أحد أطبائه ويدعى ابن اسحاق ليعرف مكانه من صدق الخدمة فخلع عليه وأقطعه بما يساوى خمسين ألف درهم ثم طلب منه أن يصف له دواء يقتل به عدوا له لا يحب ذكر اسمه ـ فأجابه ابن اسحـــاق « يعفونى أمير المؤمنين فانى لم أتعلم غير الأدوية النافعة ولم يخطر ببالى أن يطلب منى خلافها » ولما لم يظفر منه بطائل أخافه وتهدده ثم أرسله الى السجن فى بعض القلاع وتركه مدة وبعد ذلك أحضره وأعاد عليه الطلب فأصر على امتناعه • فأمر الخليفة باحضار السيف والنطع وقال نقتلك ان لم تفعل فقال ابن اسحاق : «ان لى ربا يأخذ حقى غدا فى الموقف الرهيب » فتبسم المتوكل وقال له : « طب نفسا فانا انما أردنا امتحانك والثقة اليك » فقبل ابن اسحاق الأرض وشكر ، وبعد أن هدأ روعه سأله الخليفة ما الذى منعك من الاجابة مع ما رأيت من صدق الأمر منا فى الحالين فقال : شـــيئان الدين والصناعة» أما الدين فانه يأمرنا باصطناع المعروف حتى الى أعدائنا ، وأما الصناعة فانها موضوعة لنفع أبناء الجنس ومقصورة على معالجتهم ومع هذا فقد جعل فى رقاب الاطباء عهـــد مؤكد بايمان مغلظة ألا يعطوا أحدا دواء قتالا أو مضرا فقال الخليفة انهما شرعان جليلان وأنعم عليه فحمل انعامه وخرج وهو أحسن الناس حالا وأنعمهم بالا •

وقد اقترنت بحـــوث العرب فى الطب ببحوثهم فى الكيمياء فاستفاد الأوروبيون منها استفادة كبيرة • ونقلت كتب الرازى كما نقلت كتب جابر بن حيان ، ومنها تلقى الأوربيون تقسيم المـــواد الكيمياوية الى نباتية وحيوانية ومعدنية . وللبيرونى فضل السبق

الى درس السوائل فى عيون الارض ومرتفعات الجبال ويعتبر الرازى أول من وصف حامض الكبريتيك والكحول فقال ان الاول يستخرج بتحضير كبريت الحديد والثانى يستخرج بتفطير المواد اللبنية او السكرية المختمرة • ويقول المستشرق الكبير «جوستاف لوبون» أنه لولا ما وصل اليه العرب من نتائج واكتشافات لما استطاع لافوزيه ــ أبو الكيمياء الحديثة ــ أن ينتهى الى اكتشافاته •

واذا كانت مدرسة سالرنو قد أصبحت أول جامعة للطب فى أوربا فان الفضل يرجع الى الطب العربى فيما أحرزته تلك المدرسة من شهرة نظرا لما كان يدرس فيها من علوم عربية وكان أطبــــاء المسلمين يحضرون اليها من شتى البلاد الاسلامية لالقاء المحاضرات فيها •

والطريف أن الاطباء العرب كانوا يرشدون الى أنواع الغذاء التى يجب أن يتبادلها الانسان فى الصحة والمرض فالرازى فى كتـــاب « منافع الاغذية ودفع مضارها » يذكر كثيرا من ألوان الطعام وطرق عملها ومزايا أو مضار كل لون ــ وابن سينا ينصح بتعديل الطعام فى كمية بحيث لا يزيد أو يقل عن اللازم ــ وينصح ابن سينا كذلك بعدم دخول الحمام دفعة واحدة والجسم مجهد أو الخروج منه دفعة واحدة نظرا لما تسببه الحالتان من نوازل وكذلك يرى عدم الافراط فى شرب الماء نظرا لما يسببه ذلك من عسر الهضم وتخفيف عصارة الكبد والعصارات المعدية •

وقد نصح الأطباء المسلمون بالاعتدال فى تناول الطعام مخافة التخمة والمرض بل ان الرسول الكريم تنبه الى ذلك قبل أربعـــة عشر قرنا مما جعله العلم الحديث فى أوربا اليوم دستورا للعلاج فقال صلى الله عليه وسلم : « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع واذا أكلنا لا نشبع » وقال صلى الله عليه وسلم : « البطنة أصل الداء والحمية أصل كل دواء » وقال صلى الله عليه وسلم أيضا : « لا تشبعوا من الطعام ثم تأكلوا عليه فان ذلك أصل كل داء • »

وقال عمر بن الخطاب : « اياكم والبطنة فى الطعام والشراب فانها مفسدة للجسم مورثة للسقم مكسلة عن الصـــلاة ، وعليكم بالقصد فانه أصلح للجسم وأبعد عن السرف • » وقال عمر رضى

الله عنه كذلك محذرا من اكثار أكل اللحم : « اياكم وهذه المجازر فان لها ضراوة كضراوة الخمر» • وغنى عن البيان أن كثيرا من الاطباء ينصحون مرضاهم فى بعض الأحوال المرضية بالامتناع عن تناول اللحوم لان تناولها يضاعف المرض ويفسد العلاج •

وقد حارب الاسلام المسكرات بكافه أنواعها وجاء العلم الحديث فآمن بهذه النظرية وارجع كثيرا من الامراض مثل الطحال والكبد والمعدة الى تناول الخمور والمشروبات الروحية •

ومما هو جدير بالذكر فى هذا الصدد أن المؤتمر الدولى التاسع عشر لمكافحة المسكرات الذي عقد فى مدينة (أنفرس) ببلجيكا كما أثبتت غيره من المؤتمرات التالية المنعقدة في السنوات التالية صدق الدعوة المحمدية وحكمة الاسلام فى تحريم الخمر اذ وقف أحد أعضاء المؤتمر الدولى وقال ان جزيرة ايسلندة - وهى من أشد البلدان بردا - كان أهلها يستعينون على مكافحة البرد بتعاطى المشروبات الروحية فكثرت بينهم الوفيات الى حد أقلق بال ولاة أمورهم فألفوا لجنة لتبحث فى الامر وتتعرف أسبابه فأثبتت هذه اللجنة أن كثرة الوفيات ترجع الى أن القوم يستنفذون حرارة أجسامهم بما يتعاطونه من الخمر مما يعجل بوفاتهم لانتهاء الحرارة تدريجيا من أجسامهم •

كما نهض عضو آخر من أعضاء هذا المؤتمر وذكر أن الدكتور سكوت ورفاقه حين ذهبوا فى منطاد لارتياد القطب الجنوبى أدرك سكوت سوء تأثير الخمر فأوصى أصحابه بألا يشربوا خمرا لئلا يفقدوا مناعة أجسامهم فلا تقوى على تحمل البرد الا أن بعض رفاقه لم يستمعوا الى نصيحته وتجرعوا بعض أقداح من الخمر فكانت النتيجة كما دونها الدكتور سكوت فى مذكراته أن الذين أتبعوا سبيله واجتنبوا شرب الخمر بتاتا نجوا من الموت دون غيرهم •

وقد أنشأ العرب كثيرا من المستشفيات للعلاج وأمدوها بكافة المعدات اللازمة للمرضى من أسرة وأدوات طبية وكانوا يسعفون الجرحى والغرقى بالعلاج ويعرفون وسائل تخفيف الحروق وما اليها وقد عرفوا الفرق بين الجرح البسيط والجرح الجسيم بما ورد ذكره فى القرآن الكريم فهو يقول تعالى فى كتابه العزيز : « ان الذين

كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب . »

والحكمة فى ذلك أن أعصاب الالم توجد فى الطبقة الجلدية وأما الانسجه والعضلات والاعضاء الداخليةفالاحساس فيهاضعيف ولذلك يعلم الطبيب أن الحرق البسيط الذى لا يتجاوز الجلد يحدث ألما شديدا بخلاف الحرق الشديد الذى يتجاوز الجلد الى الأنسجة لأنه مع شدته وخطره لا يحدث ألما كثيرا فالله تعالى يقول لنا ان النار كلما أكلت الجلد الذى فيه الاعصاب تجدد ، كى يستمر الالم بلا انقطاع ويذوقوا العذاب الأليم .

وكان أبو القاسم الزهراوى فى طليعة جراحى المسلمين وكانت تعاليمه ومعلوماته ووسائله وآلاته أساسا متينا بنيت عليه صروح الجراحة الحديثة . ويبدو أن أبا القاسم أول من ربط الشريان لايقاف النزف بخيوط من الحرير ، وأول من أخاط الأعضاء بخيوط مصنوعة من الأمعاء ، وأوتار العود . وأوصي بجعل الطرفين السفليين أعلى من الرأس حين اجراء العملية الجراحية على البطن فسبق بذلك العالم - تران دى لانبورغ - الذى اخترع الوصفة التىتحمل اسمه واشتهر من جراحي المسلمين كذلك مروان بن زهر وكان كتابه فى الطب موضوع التدريس فى مدرسةباريسالطبيةويقولالبروفسور بوشو « ان ابن زهر أول من اهتم بدرس العظام والكسور وقد اتيح له التشريح . لان ما تركه من وصف الدمامل فى الصدر وفى المعدة يدل دلالة صريحة على معرفته لعلم التشريح .

وقد استخدم بعض الأدوات الطبية التى تستخدم فى الجراحة ومثال ذلك « كلبة الاضراس » وكانت تقلع بها الاضراس ومكاوى الطحال والرأس والنشاب مجرفة الاذن وأوعية المراهم والمباضع ونحو ذلك .

واشتهر من أطباء العيون عند العرب أبو الفضائل بن الناقد وهو مؤلف كتاب « المجربات » وخليفة بن أبى المحاسن الحلبي الذى وضع كتاب « الكافى فى الكحول » و « صلاح الدين بن يوسف الكحال » وقد وضع مؤلفا فى عشرة أجزاء أطلق عليه « نور العيون وجامع الفنون » .

ويبدو أن لقمان الحكيم أقدم طبيب عربى اشتغل بأمراض

الأسنان وجاء بعده جذيمة وكان الحارث وابنه النضر والتميمى ممن بحثوا فى الاسنان وطبها فى عهد الرسول وقد عنى الاسلام بالفم وطهارته وبالاسنان ونظافتها والحديث للرسول الكريم يحث فيه على نظافة الاسنان ومسحها بالسواك عند كل صلاة • وعرف العرب شد الاسنان بالذهب ـ وكان عثمان بن عفان ممن شدوا أسنانهم بخيوطه ـ ومما يدل على اهتمام العرب بأسنانهم أن ثريا بنت على بن عبد الله ـ كانت تضع الخواتم فى أصابعها العشر وقد صدمت بأحد خواتمها أسنانها فكسرت ثنيتاها العلويتان حتى كادت تخلعهما فنظم عمر بن أبى ربيعة بعض أبيات فى هذا المعنى وقال :

مابال سنيك أم مابال كسرهما أهكذا كسرا فى غير ما باس •

أنفحة من فتاة كنت تألفها أم نالها وسط شرب صدمة الكأس

وقد تخصصت بعض الطبيبات عند العرب فى أمراض النساء والولادة مثل أخت الحفيد بن زهر الأندلسى وابنتها ـ وقد طار صيتهما فى آفاق الاندلس ـ وكانتا تعالجان نساء الملوك والوزراء •

أما الحميات فقد عرفها المسلمون وعملوا على علاجها وبرز أطباء عرب مسلمون فى مداواتها ووضعها المتنبى فى بعض أشعاره ـ واكتشف ابن نفيس الدورة الدموية الصغرى وفهم تركيب الرئة والأوعية الشعرية التى بين الشرايين والأوردة الرئوية وشرح الدورة الرئوية شرحا كافيا ، ونفى الرأى القائل بأن القلب يتغذى من الدم الموجود فى التجويف الايمن ، وكان اكتشاف ابن نفيس للدورة الدموية الصغرى قبل اكتشاف الاطباء الايطاليين لها بثلاثة قرون •

ويعتبر ابن الهيثم من أول العلماء الذين أشاروا الى الحيوان المنوى مناهضا بذلك آراء أطباء عصره وعلماء زمانه ، فقال أن النطفة تخرج من جميع أجزاء البدن والحجة فى ذلك مشابهة المولود للوالدين مشابهة كلية فدل ذلك على أن كل عضو أرسل الى النطفة قسطه ونصيبه ولو أن النطفة جسم واحد متشابه فى نفسه لما تولدت منه

الأعضاء المختلفة لذلك سماها الله سلالة والسلالة على وزن « فعالة » وهو ما يسل من البدن ، ويقول ابن الهيثم عن النطفة ان فيها حيوانا صغيرا ٠

وأتقن العرب فحص البول وجلسوا له وكان يوحنا بن ماسوية المترجم لهارون الرشيد ذا دعابة وكان أطيب ما يكون مجلسه فى وقت نظره فى قواوير البول التى يسمونها « القسطرة » واشتهر أبو قريش عيسى طبيب المهدى بذلك ، وقال أحد الشعراء فى ثابت ابن قرة الطبيب ٠ الذى اشتهر بفحص البول هذه الابيات :

مثلت له قارورتى فرأى بهـــا ما اكتن بين جوانحى وشفاقى ٠
يبدو له الدواء الخفى كما بدا للعين رضراض الغدير الصافى ٠

قال العـــلامة « جوتييه » وللعرب فى ميـــدان الاختراعات شىء لا بأس به بالنسبة لعصورهم وقد وجد فى كتاب عربى قديم لم ينقل الى اللغات الاوربية أن العرب عرفوا طريقة عمل الجليد الصناعى ولم تعرف أوربا سر الصناعة فى النصف الاول من القرن السادس عشر وأدخلوا على أوربا الورق المعمول من القطن والورق الرخيص الثمن وكان الناس من قبل يكتبون على البردى وهو غال جدا ، وكانت معامل شاطبة فى أسبانيا تصدر بضاعة الورق الى أوربا الغربية على حين كانت أوربا الشرقية تبتاع ورقها من بلاد الشرق الادنى مباشرة ٠ وأضاف جوتييه الى ذلك قوله : « ان العرب علمونا صنع الكتاب وصنع البارود وعمل ابرة السفينة فعلينا أن نفكر ما اذا كانت نهضتنا لو لم يكن من ورائها هذه المخلفات التى وصلت الينا من المدنية العربية ٠ »

عرف العرب آلة الظل والمرايا المحرقة بالدوائر والمرايا المحرقة بالقطوع وقطعوا شوطا كبيرا فى الميكانيكيات ، ولما بعث الرشيد العباسى الساعة الدقاقة الكبيرة الى شارلمان تعجب منهـــا أهـــل ديوانه ولم يستطيعوا أن يعرفوا كيفية تركيب آلاتهـا على ما حققه ذلك « سيديليو » ومع ذلك لم يكن فى عصر العباســـيين أهم من مهنة الفلاحة وأظهر العرب بمهارتهم مزايا فواكه الغرس وأزهار اقليم مازندران وقال شارل سنيوبوس Charles Saignobos

تاريخ الحضارة أن أمراء العرب جروا على عادة اسقاء الارض بفتح الترع — فحفروا الآبار وجازوا بالمال الكثير من عثروا على ينابيع جديدة ووضعوا المصطلحات لتوزيع المياه بين الجيران ونظم العرب ديوان المياه الذى كان يرجع اليه فى مسائل الرى . وليس من شك فى أن هذه الاساليب التى استخدمها العرب من أول الوسائل التى يعتمد عليها أهل الغرب فى تنظيم هذا المرفق الحيوى من مرافق الحياة وذكر «ريسون» أن العرب احرزوا فضل السبق دون غيرهم فى مضمار التجارة ورقوا الصناعات البحرية ووضعوا قوانين حقوق الملاحة وضبطوا التجارة بفن مسك الدفاتر وشرحوا الكفالة وأنشئوا المصارف للفقراء .. ويضيف العالم «ريسون» قوله :

« وكنت تراهم حيث نزلوا يمهدون السبل ويعمرون المرافىء والفرضات ويصلحون الفنادق والرباطات — ويرتبون سير القوافل — وكانت المدن الاسلامية أوساطا تجارية كبرى . وكان أهل بيزا الايطاليون ينزلون مدينة «بجاية» فى الجزائر حيث يتعلمون صنع الشمع ومنها نقلوه الى بلادهم والى أوربا . »

ويقول العلامة سنيوبوس : « وكان عبد الرحمن الثالث الاموى على اتصال دائم بأمراء أسبانيا وفرنسا وألمانيا وممالك الصقالبة — وكان القصر الملوكى فى « تولوزة » من بلاد فرنسا صورة من صور قصور الخلافة فى قرطبة يتبارى فيه الشعراء وتقوم فيه للآداب سوق ، ولما انتقل أحد أمرائهم ليتولى عرش فرنسا عام ٩٩٩ م ادخل ما أخذ عن العرب من فنون الحضارة وفى الحروب الصليبية تعلم الفرنسيس صنع الورق من دمشق من أسيرين قضيا زمنا فى هذه المدينة فلما عادا الى بلادهما نشرا فيها هذه الصناعة ونبغ العرب فى ميدان الرياضيات كذلك وكانوا أول من تنبه الى لفظ « صفر » التى كان لها أثر كبير فى الميدان الرياضى — ولم يعرف الغرب استعمال الصفر الا فى القرن الثانى عشر وأشهر رياضى هو الخوارزمى الذى عاش فى القرن الحادى عشر واقتبس الغربيون كثيرا من نظرياته وقواعده وأشهر مصنفاته الحساب والجبر وقد نقل الى اللغة اللاتينية وقال ابر : « آن فكرة الصفر فى صفر لحاتم جاء فيه :—

ترى أن ما أهلكت لم يكن خدنى .. وأن يدرى مماتجلت به صفر أما فى الهندسة وعلم المثلثات فقد ترجم العرب كتاب اقليدس (أبو كليد) فى الهندسة وهذه الترجمة هى التى نقلها الاوروبيون الى اللاتينية فى القرن الثانى عشر وقد أضاف العرب الى علم الاغريق فى هذين الميدانين اضافات كثيرة وتعمقوا فى ابحاث المخروطات وحساب المثلثات وكتب ابن الهيثم رسالة أطلق عليها « شكل بنى موسى » وكتب البيرونى كتابا فى استخراج الأوتار من الدوائر .

وقد عمل بعض المهندسين العرب فى هندسة كنيسة « نوترادم دى بارى » المشهورة فى باريس ، ان من يلقى نظرة على المساجد والقصور وعلى غيرها من الآثار العربية من منقولها وغير منقولها يشهدانها نسجت على غير مثال وان الابداع ظاهر محسوس . وقد استخدم المهندسون العرب فى صنيعها كل ملكاتهم الفنية ومواهبهم الرفيعة . وقد قال « همبولد » فى معرض حديثه عن الحضارة العربية : « ان العرب بلغوا فى العلم العملى درجة لم يكن يعرفها أحد من القدماء . »

وقد أوحى الصناع المسلمون الى صناع الغرب طريقة جديدة فى زخرفة جلود الكتب ففى العصور الوسطى كان المجلدون الاوروبيون غالبا ما يزخرفون جلود الكتب بطبع رسوم عليها مستعينين فى ذلك بمكابس معدنية وقد تيسر بهذه الطريقة الوصول الى موضوعات زخرفية جليلة الاثر فبعد أن كبرت المكابس وزادت زخارفها كمالا وابداعا ذاع استعمال زخارف دقيقة الصنع وفيها حافات (كنارات) ورسوم متكررة وتسمى زخرفة غلاف الكتب برسوم مطبوعة بآلات محماة . »

كانت الزخارف التى تصنع بهذه الطريقة بارزة فقط حتى بدأ الصناع العرب يزينون الرسوم المطبوعة بملء أجزائها المنخفضة بصبغات ذهبية وقد أدخل هذه الطريقة الى أوربا المجلدون المسلمون الذين أقاموا فى البندقية وقد أثر العرب فى فن التصوير فى أوربا فظهرت الصور المعممة والوجوه ذات السمة الشرقية فى الصور الايطالية منذ النصف الثانى من القرن الرابع عشر وظهر التأثر بالشرق كذلك فى رسم السجاجيد الفارسية والمنسوجات

والملابس الشرقية كما يبدو هذا التأثر فى ادخال الحيوانات غير المعروفة في الغرب مثل الفهد والقردة والببغـاوات وكذلك فى رسم المناظر الطبيعية وأنواع النبات الموجودة فى الشرق عند العرب بل انهم أدخلوا الى أوربا عن طريق أسبانيا والبرتغال القطن والمشمش والكوسا والفاصوليا ، وقصب السكر ،والزيتون والبطيخ الاصفر « النمس » والياسمين كما تعلموا من العرب بعض فنون الرى .

أما السجاد الذى يعتبر الآن شيئا لا غنى عنه فقد جاء الى أوربا من الشرق وكان من الكماليات التى لايحصل عليها غير الاغنياء والموسرين ـ والسجاد قديم جدا فى الشرق سـواء منه الناعم الملمس الذى يشبه نسيج التباسترى Lapeatry أو النوع ذى الخيوط الرخوة المعتـادة فى النسيج ـ والتى ينتج منهـا سطح له وبر يشبه القطيفة . وتدل رسوم السجاد الشرقى فى الصور الايطالية على أنه كان معروفا فى أوربا منذ القرن الرابع عشر على أقل تقدير ، وفى القرن السادس عشر أصبح السجاد سلعة غاوية فى الاسواق الاوربية .

وبرع العرب فى الجغرافيا . واشهر جغرافيى العرب هو الادارسى ـ وقد نقل ما ألفه فى الجغرافيا الى اللغة اللاتينية . وقد تعلمت أوربا علم الجغرافيا منه فى القرون الوسطى وخريطة الادارسى المحتوية على منابع النيل والبحـيرات الاستوائية التى لم يكتشفها الاوروبيون الا فى العصور الحديثة من أبرع الخرائط الجغرافية وهى تثبت أن معارف العرب فى جغرافية افريقية أعظم مما كان يظن كما برع فى علم الجغرافيا القزوينى وياقوت الحموى وقد عاشا فى القرن الثالث عشر من الميلاد وكتاب «معجم البلدان» لياقوت الحموى هو معجم جغرافى كبير باسماء بلاد الاسلام . وقد ذكر أبو الفدا (١٢٧١ ـ ١٣٣١ م) العالم العربى الجغرافى أسماء ستين عالما جغرافيا مشهورا من الذين ظهروا قبله .

ويعتبر القزوينى المتوفى عام ١٢٣٨ م من أبـرع علمـاء العرب فى التاريخ الطبيعى حتى أنه لقب بـ (بلين) المشـارقة وكانت طريقة القزوينى قائمة على الوصف كما صنع بعده بوفون ،

وقد حلل بعض علماء الغرب أسباب التضاريس وتعرضوا لاسباب وجود الجبال والوهاد ، والمرتفعات والمنخفضات على النحو الذى لجأ اليه علماء الغرب فيما بعد ومن ذلك ما أشار اليه ابن سينا فى حديثه عن منشأ الجبال اذ يقول أن الجبال اما تكون قد نشأت عن ارتفاع فى قشرة الارض بفعل احدى الزلازل الشديدة مثلا واما أن تكون قد نشأت عن أحداث المياه مع الزمن ، للاودية نتجتها الصخور اللينة وبقاء الصخور الصلبة قائمة — ويستدل ابن سينا على هذا بما يشاهد على أكثر الصخور من آثار الحيوانات المائية وغيرها — وعند ابن سينا أن النباتات المنحلة والاوحال التى تأتى بها المياه هى مصدر ما يرى على الجبال من التراب .

وقد قال مسيو رينان : « أن البرت الكبير مدين لابن سينا ، وسان توما مدين فى فلسفته لابن رشد . »

ولم يظهر فى أوربا قبل القرن الخامس عشر من الميلاد عالم لم يكتف بما فى كتب العرب فعلى كتب العرب وحدها عول روجر بيكون وليونارد البيزى وريمون لول وسبان توما . وكانت ترجمات كتب العرب العلمية المصدر الوحيد للتدريس فى جامعات أوربا نحو ستة قرون ، ونظام المعيدين المعمول به الآن فى مختلف جامعات العالم الحديثة عرفه العرب من قبل فى مدارسهم وجامعاتهم ، فكانوا يعينون معيدا لكل مدرس حتى يعيد على الطلبة ما ألقاه عليهم المدرس ليفهموه ويحسنوه كما يشرح لهم مايحتاج الى الشرح . وقد ذكر الذهبى فى تاريخ الاسلام أن وظيفة المدرس كانت من أبرز الوظائف فى الدولة الاسلامية وكان السلطان يخلع على صاحبها كما يكتب له توقيعا من ديوان الانشاء يختلف باختلاف المادة التى يدرسها المدرس — وقد أصبحت وظيفة المدرس فى الجامعة موضع الاجلال والاكبار فى أوربا بعد ذلك . وان الكتاب الاوربيين يقررون فى أكثر كتبهم ماامتازت به الجامعة الاوروبية الناشئة فى العصور الوسطى من تقدير لمكانة المدرس الجامعى .

ومن المعروف عن نظم التعليم الاسلامية أن الطالب كان اذا أتم دراسته وتأهل للافتاء والتدريس اجاز له استاذه ذلك وكتب له أجازة يذكر فيها اسمه واسم شيخه ومذهبه وتاريخ الاجازة

ولعل الجامعات الاوروبية التى نشطت فى أواخر القرن الثانى عشر اخذت هذا النظام الاسلامى وقررت منح الطالب ترخيص التدريس وكانوا يسمونه Licentia docenirı وهو يشبه الى حد بعيد ذلك الترخيص الذى كان يمنحه الشيخ لتلميذه فى العصور الاسلامية .

واشتهر فى القرن العاشر الفلكى ابن يوسف الذى اخترع جهازا لقياس ارتفاع الشمس وفى القرن الحادى عشر اشتهر أبو العباس الفرغانى بأبحاثه القيمة عن الكواكب والابراج كما اخترع ابن الزركلى الآلة التى تحدد مكان الكواكب وارتفاعها وقد سماها « الصفيحة » وعمل علماء الغرب على تحسين هذا الاختراع الخامس عشر ، وكان الفلكى أبو عبد الله محمد الباتانى قد فسر عام ٨٢٩ هـ بعض الظواهر الطبيعية الغامضة مثل الكسوف والخسوف وتعاقب الفصول واكتشف حركات النجوم والقمر وحدد مواقع الكواكب والابراج بدقة مدهشة أثارت اعجاب العالم الغربى ريجو مونتانوس فى القرن الخامس عشر . ومن الطريف ان نذكر أن عالما عربيا هو قطب الدين الشيرازى المتوفى عام ١٣١١ م استطاع أن يعلل قوس قزح تعليلا صحيحا فقال : « ينشأ قوس قزح من وقوع أشعة الشمس على قطيرات الماء الصغيرة الموجودة فى الجو عند سقوط الامطار وحينئذ تعانى الاشعة انعكاسا داخليا وبعد ذلك تخرج الى عين الرائى ٠

وكان العرب أول من وصل الى اكتشاف نسب حقيقية بين وزن الاجسام المختلفة مع فقدان الآلات التى تسهل عليهم هذه المهمة ٠ فنجد البيرونى المتوفى نحو ١٠٤٨ م يستخرج الثقل النوعى للاجسام بأن يزن الجسم ذاته فى الهواء ثم يزن الجسم ذاته فى الماء بعد أن يدخله فى وعاء مخروطى الشكل مثقوب على علو معين وبعدئذ يزن الماء الذى فاض من الوعاء بسبب ادخال الجسم فيه ، ومن كمية الماء الفائضة كان يعرف حجم الجسم ثم يقسم وزن الجسم فى الهواء على وزن الماء الفائض فيجد الثقل النوعى لمادة الجسم الموزون ٠

وقد وصل ابن الهيثم فى القرن الحادى عشر للميلاد بعلم البصريات الى أبعد درجات التقدم وقد أخذ كبلر Kepler

منه معلوماته فى الضوء ولاسيما مايتعلق بالانكسار الضوئى فى الجو. وقال عنه المؤرخ سارتون Sartan ان ابن الهيثم أعظم عالم ظهر عند العرب فى الطبيعة بل أعظم علماء الطبيعة فى القرون الوسطى، ومن علماء البصريات القليلين فى العالم .

ولابن الهيثم بحوث وافية فى قوى تكبير العدسات ويرى كثيرون أن ماكتبه فى هذا الصدد مهد السبيل لاستعمال العدسات فى اصلاح عيوب العين .

وقد استخدم العرب البوصلة ـ وساهموا فى اختراعها واختراع الابرة المغنطة ومن الالفاظ التى استعملها العرب ونقلت الى اللغات الاجنبية كلمة « الفلائك » جمع فلوكة وقد أطلق عليها الفرنسيون Filangue وأطلق عليها الايطاليون Fleuca وكلمة الشباك التى أطلق عليها الفرنسيون Chebec كما أطلق عليها الايطاليون Scilecco

وفى القرن الثالث عشر استخدم المسلمون العرب الورق العربى من وادى قشطالة ومن ثم انتقل الى فرنسا وايطالية وانجلترا . ويشهد للعرب على علو كعبهم فى هذا المضمار ماتركوه من مخطوطات نفيسة على ورق صقيل فى غاية الروعة والجمال .

ويقال ان العرب هم الذين أصلحوا جنس الخيل فى فرنسا وذلك لانهم كانوا يأتون على سفنهم بالجياد الاصيلة لشن الغارات فبقى جنسها فى فرنسا منذ ذلك الوقت ، ولا يزال حتى الآن هناك أجناس من الخيول العربية فى جنوب فرنسا ، بل لقد شاعت بعض الرقصات العربية فى هذه المناطق ، ويقال ان العرب الذين نزلوا فى « بروفانس » هم الذين بدءوا فى استثمار شجرة البلوط ولا تزال هناك غابة تسمى « غابة المغاربة » وقد ذكر « ريساس » فى كتابه « المنتخبات العربية » ان ملوك أوربا كانوا يستخدمون ملابس عربية وقال اننا نعرف منسوجات كثيرة من منتجات العرب من النوع الذى يسميه ابن خلدون « الطراز » واول ما أذكره « الطيلسان » الذى كان يرتديه قياصرة المانيا فى تتويجهم فقد كان هذا الطيلسان يشتمل على كتابات عربية منسوجة بخيوط الذهب .

وقد ظهر أثر المسلمين فى الادب الاوربى واضحا جليا ونخص بالذكر « بوكاشيو » و « دانتى » و « بترارك » الايطـاليين ، و « تشوسر » الانجليزى و « سرفانتيز » الاسبانى وفى عام ١٣٤٩م كتب « بوكاشيو » حكاياته المسماة « الصباحات العشرة » ،وحذا فيها حذو الف ليلة وليلة التى كانت شائعة فى هذه الفترة من التاريخ وقد ضمنها مائة حكاية من طراز حكايات الليالى العربية ، اقتبس منها « ليسنج » الالمانى احدى مسرحياته وهى « ناتان الحكيم » .

وألف « تشوسر » قصص كانتربرى على غرار هذه القصص ومنها قصة السيدة التى استمدها من ألف ليلة وليلة العربية .

وربما كانت صلة «دانتى» بالعربية أعظم من صلة «بوكاشيو» و « تشوسر » فقد عقد بعض المستشرقين مقارنات بين الجحيم عند « دانتى » ووصف النار فى « رسالة الغفران » عند أبى العلاء المعرى . ومن يقرأ كتاب « سرفانتيز » المعروف « دون كيشوت » لا يداخله الشك فى أنه تأثر بالثقافة العربية التى كانت شائعة فى عصره .

وظهرت فى الادب الفرنسى قصص تحمل الطابع العربى ومن أشهرها قصة « أوقاسين ونيقوليت » Aucassin etpicolette واسم البطل « أوقاسين » ماهو الا تحريف للاسم العربى «قاسم» وترجمت قصص « كليلة ودمنة » الى الاسبانية واللاتينية فى القرن الثالث عشر ، ثم ترجمت الى الفرنسية ويجد بعض النقاد مشابه شتى بين هـذه القصص و « خرافات لافونتين » فى الادب الفرنسى .

وفى الأدب الأوربى الحديث ظهرت آثار المسـلمين واضحة جلية كذلك فهذا هو « لورد بيرون » زعيم الحركة الرومانتيكية فى الأدب الانجليزى ـ ينظم قصيدة رائعة عن « روح الاسلام ». كما رحـل الشاعر الفرنسى الرومانسى « لامارتين » الى الشرق ، واستوحى بعض قصائده من سحر الشرق ونظم الشاعر الألمانى « جوته » ديوانا برمته عن الشرق أطلق عليه « الديوان الشرقى للمؤلف الغربى » كما أن الشاعر « هاينى » ـ شـاعر العذاب

والابداع ــ استوحى الشرق فى بعض قصائده ، وهنالك مسرحية انجليزية بعنوان « حسن » (Hassan) ألفها الشاعر الانجليزى الكبير « جيمس الورى فلكر » صاحب ديوان « جسر النار » ولا شك أنها مستمدة من سحر الشرق وأسماء العرب.

ويقول المستشرق الكبير « هاملتون جب » فى كتاب « تراث الاسلام » انه ليس من الغلو فى شىء أنه لولا كتاب « الف ليلة وليلة » لما استطاع « دانيل ديفو » أن يؤلف رحلة « رسالة حى بن يقظان » لابن طفيل وقد ترجم هذا الكتاب عن العربية فى القرن السابع عشر من الميلاد .

ويقول الدكتور جب كذلك : أن « ألف ليلة وليلة » كانت من العوامل التى دفعت « سويفت » الى كتابة « رحلات جليفر » المشهورة .

وقد أثر الادب العربى فى أسبانيا فى الشعر الغنائى الاوربى تأثيرا كبيرا سواء أكان ذلك فى الشعر المكتوب باللغة الاوربية الرفيعة أم باللغة الشعبية الدارجة ــ وقد وجد الباحثون كثيرا من وجوه الشبه بين الاغنية الشعبية عند العرب والاغنية الشعبية عن الافرنج واستدلوا على ذلك من وجود (الخرجة) وهى بيتان تنتهى بهما الاغنية ولعل اول من تنبه الى هذا الشبه بين الشعر الشعبى الأندلسى وأغانى التروبادور فى العصور الوسطى هو المستشرق الأسبانى (دون خوليان ريبيرا) وقد أدرك أن هناك مشابه شتى فى الصياغة بل فى الموضوعات التى تقوم عليها الاغانى بين الشعر الاندلسى وشعراء التروبادور بل أن بعض الباحثين يعتقد أن كلمة تروبادور مستقاة من كلمة (طرب) العربية

ولا يستطيع أحد أن ينكر أثر الفنون والصناعات العربية فى أوربا عند عقد المقارنة بين الآثار العربية فى المشرق والمغرب ولا بد من الاعتراف بأن بعض الآلات الموسيقية التى شاع استخدامها فى أوربا قد أخذت عن العرب وبعضها ــ مثل العود ــ لا يزال يسمى باسمه العربى فى جميع اللغات الاوربية

وشاعت أحوال الحضارة العربية فى أوربا وتفشت فى شتى

المجتمعات سواء اكان ذلك من طريق المعاشرة أم الاتباع فى الحكم أم تبادل المتاجر . ومن الاسماء ذات الاصول العربية فى مظاهر تلك الحضارة كلمات :

قطن Cotton الزعفران Saf fran الحرير الموصلى «الموسلين» Mwslin الجرة Jar الحية Jupe الصفة (المقعد الطويل) Sofa المسك Musk الأرز Rice العطر ffttard الليمون Lemon القهوة Coffee السكر Sogar

وغير ذلك من الأسماء ذات الاصول العربية لم يقتصر الأمر على دخول هذه الأسماء الى اللغات الانجليزية والفرنسية والايطالية بل دخل الى اللغتين الأسبانية والبرتغالية ألفاظ يضيق بها الحصر .

وقد أصدر الدكتور « وينر » ـ الأستاذ بجامعة هارفرد ـ مجلدين ضخمين حاول أن يثبت فيهما أن الحضارة الاوروبية ذات أصول عربيه ورد اشتقاق كثير من الكلمات فى اللغات الأوربية الى مصدر عربى .

وأشار الاستاذ « نيكلسون » فى كتاب « تراث الاسلام » ـ الى المشابهات بين أقوال الصوفيه المسلمين وأقوال الصوفية الأوربيين من الأقدمين مثل « اكسهارت » الألمانى والمحدثين مثل « أدوارد كاربنتر » الانجليزى .

وكان اكسهارت ينادى كما ينادى ابن العربى ـ بأن الله هو الموجود الحق ولا موجود سواه ، وان الحقيقة الالهية تتجلى فى جميع الأشياء ولا سيما روح الانسان التى مصيرها الى الاتصال بالله من طريق الرياضة والمعرفة والتسبيح وأن صلة الروح بالله ألزم من صلة المادة بالصورة والأجزاء بالكل والاعضاء بالاجسام.

ويرى الأستاذ « آسين بلاسيوس » الأسبانى أن نزعات « دانتى » الصوفية وأوصافه لعالم الغيب مأخوذة من محيى الدين ابن عربى بغير تصرف كثير .

وقد نقل الأوروبيون من الشرق الأرقام الهندية وكانوا يستعملون من قبل الأرقام اللاتينية وهى — من حيث تعقدها وضخامتها — لا يمكنها أن تخدم العلم الحديث .

ويقول المستشرق « ليبرى » : ان العرب اذا استحقوا الخلود فانهم يستحقونه غالبا لأنهم حفظوا كثيرا من الثقافات الاغريقية ، الى جانب ثقافتهم العريقة فى وقت كانت فيه أوربا تتخبط فى ظلمات يموج بعضها فوق بعض .

وبرع المسلمون فى التجارة براعة عظيمة ومن الاقوال المأثورة فى التجارة قول القرآن الكريم : « يأأيها الذين آمنوا لا تأكلوا اموالكم بينكم بالباطل الا أن تكون تجارة عن تراض منكم » . وقوله تعالى : « أحل الله البيع وحرم الربا » . ومن أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم : « ما أملق تاجر صدوق ، وماأقفر بيت فيه خل » و « أطيب ما يأكل الرجل من كسبه » والكسب هو التجارة » . و « تسعة أعشار الرزق فى التجارة » وفى الحديث عن قيس بن ابى عروة : « كنا نسمى (السماسرة) فسمانا النبى صلعم باحسن منه فقال : « يامعشر التجار » .

وكان العرب يتاجرون مع الهند والصين لقربهم منها كما اتجروا مع البعيدين عنهم وفى زمن الخلفاء الراشدين سافر ابن عبدالوهاب وكثيرون غيره من البصرة الى بلاد الصين وعام ٢٣هـ (٦٤٣ م) كتب عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص بعد فتحه مصر « ان الغلاء قد وقع بالمدينة وان الناس في جهد من الغلاء » فبعث عمرو بجمال موقرة أولها الاسكندرية وآخرها بالمدينة .

قال « فكتب عمر الى عمرو « بان يحفر خليجا يحمل فيه الغلال الى القلزم (البحر الأحمر) ومن القلزم الى المدينة فى البحر المالح فحفر عمرو الخليج المعروف (بخليج أمير المؤمنين) وكانت المراكب تحمل الغلال من الاسكندرية الى القلزم فى الخليج ومن القلزم الى المدينة فى البحر المالح .

وكان الخلفاء الراشدون والصحابة ومن والاهم أصحاب اعمال تجارية ، أبو بكر الصديق بزازا ومثله كل من عثمان وطلحة وعبد الرحمن بن عوف — وكان عمر بن الخطاب دلالا أو تاجرا وأبو سفيان بن حرب بياعا وعبدالله بن جدعان نحاسا ونحو ذلك .

وقد وصلت تجارة المسلمين بالطرق البرية والبحرية الى جهات نائية فى العالم ، ووصلوا الى شمال أوربا بتجارتهم كمادلت النقود التى تركوها فى تلك الاصقاع الشاسعة - والخطوط الكوفية ونحوها وكانت البضائع التى يتناولها المسلمون من شمالي أوربا كثيرة منها المعدن ولا سيما القصدير والفرو والعنبر ويأخذ الدمنكريون مقابلها من المسلمين أنواع الأقمشة والسجاد الشرقى النفيس ، والاباريق المحلاة بروائع النقوش والحلى النفيسة .

كما وصلت تجارة المسلمين الى الصين واليابان والملايو وجزر المحيط الهندى وجزر المحيط الهادى ، وكانت لهم مع هذه البلاد معاهدات تجارية مختلفة ، واستخدم المسلمون المراكب المتنوعة فى الاسفار البحرية ، والقوافل التجارية فى الطرق البرية .

وهكذا كان فضل العرب على الحضارة الاوروبية ممتدا الى شتى بلدان أوربا فى مختلف العلوم والفنون والحرف والصناعات والطب والاختراعات ويقول المؤرخ الفرنسي ليبريه : « ان العرب اذا استحقوا التمجيد فانما يستحقونه لأنهم ظلوا حفظة الثقافة الاغريقية والهندية طوال عصور كفت خلالها بقية الشعوب عن أن تنتج شيئا وكانت أوربا ما تزال فى جهالتها عاجزة عن أن تحمل الأمانة .

ويمكن القارىء ان يتمثل نفوذ العرب في أوربا من الاجتماع الصاخب الذي قال فيه بترارك ياعجبا استطاع شيشرون أن يكون خطيبا بعد ديموسنين ، واستطاع فيرجيل أن يكون شاعرا بعد هوميروس فهل قدر علينا الا نكتب بعد العرب ؟ لقد تساوينا نحن والاغريق وجميع الشعوب ، وسبقناها فى بعض الاحيان ، حاشا العرب ! فيا للحماقة ويا للضلال ! »

وقد توغل أثر حضارة الاسلام فى أوربا حتى مازج النفوس وخالط الطباع وفى ذلك يقول العلامة « بارتلمس سان هيلا » لقد هذبت طبائع أمرائنا الاقطاعيين الخشنة الغليظة فى القرون الوسطى بفضل علاقاتهم التجارية بالعرب ، وتقليدهم لهم ولقد تعلم اشرافنا وفرساننا رقة العواطف ولين الطباع وحسن

الاخلاق من العرب دون أن يفقدوا شيئا من شجاعتهم ــ وانى لأشك فى أن النصرانية كانت تستطيع وحدها أن تأتى مثل هــذا التأثير مهما يبالغ فى كرمها » .

وقد عمل الاسلام على حماية المرأة .وكان أول دين احترمهـا واجلها وكان الاغـريق يعـدون المرأة من المخلوقات المنحلة التى لا تنفع لغير دوام النسل وتدبير شئون المنزل ؛ وكانت المـرأة التى لاتضع ولدا قويا صالحا للجندية تقتل ، وكانت تؤخذالمرأة الولود من زوجها بطريق العارية لتلد للوطن أولادا من رجل آخر، فأعطى الاسلام للمرأة حقا فى الوراثة وعاملها معاملة كريمـة وأخذ الغرب عن المسلمين مبادىء الفروسية وما اقتضته من احترام المرأة . اذ أعطى الاسلام المرأة حقوقها الطبيعية وأحلها فى المجتمع محلا كريما ، وجعلها فى مكان لائق يناسب وظيفتها التى هيأها الله لها . ليتم للانسان جميع عوامل التكمل والوصول الى أبعد غايات الرقى الاجتماعى .

فالمرأة والرجل فى الاسلام عضوان متكاملان خلقا ليؤلفـا الأسرة ويعيشـا على أكمل حال من المودة والتراحم فقال تعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة » .

وهى فى الاسلام صنو الرجل فى المسـئولية لها ما للرجل وعليها ماعليه فهى فى الدنيا لها ماكسبت وعليها مااكتسبت وفى الآخرة لها درجات المتقين أو الأشرار المفسدين فقال عز وجل : « من عمل صالحا من ذكر أو انثى وهو مؤمن فلنحيينه حيـاة طيبـة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

وقد روى فى الصحيح أن النساء اجتمعن مرة وقلن للرسول صلى الله عليه وسلم « غلبنا عليك الرجال ، فاجعل لنا يوما من نفسك » .. فجعل لهن يوما يفقههن فيه ، فوعظهـــن وأمرهن .

وهذا الحديث يشهد بعلو منزلة المرأة فى الاسلام حتى انه كفل لها حق الاجتماع للتشاور وتبادل الرأى ، ووجوه النظر ، وهذه مرتبة رفيعة يحق للمرأة العربية ان تزهو بها وتفاخر قبل

أن تنطلق الصيحات النسائية فى أوربا مطالبه بالحقوق النسائية ، والمساواه فى مثل هذه الحريات بالرجال . بل ان الاسلام كفل للمرأه حق المبايعه فهى لا تنقص عن الرجال فى ذلك شيئا . وامر الله تعالى رسوله بقبول مبايعة النساء اذا اتينه فقال تعالى :

« يأيها النبى اذا جاءك المؤمنــات يبايعنك على الا يشركن بالله شــيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصــينك فى معــروف فبايعهن واستغفر لهن الله ، ان الله غفور رحيم » .

فهذه حقوق تمتعت بها المرأة المسلمة منذ صدر الاســلام فى الوقت الذى كانت فيه المرأة الغربية سلعة تباع وتشترى وكما مهملا لا قدر له ولا ثمن . وليس من شك فى أن المفكرين الاوروبيين الذين أطلعوا على حضارة الاســلام فوضحوا الحالات وعقــدوا المقارنات سروا أيما سرور من منزلة المرأة فى الاسلام حتى قال جوستاف ليبون فى معرض حديثه عن حضارة العرب « ان الاسلام كان أول دين احترم المرأة واجلها » .

وهكذا شهد شاهد من أهلها .. ومن هنا يتضح لنــا أن الاســلام كان يمتاز بالحضــارة الواسعة تضم بين رحابها شتى المعارف والعلوم والفنون ومختلف ضروب المعارف ، بل مختلف العادات والتقاليد والدعوات التحريرية الكبرى ، التى كان لهــا اصداء متجاوبة فى آفاق العالم الفسيحة .

الفصل الرابع

الصحافة العربية فى أوروبا

ودورها في خدمة المجتمع الغربي

تعتبر الصحافة مرآة لحضارة الأمة وتقدمها، وقد قامت بدور كبير فى نشر الحضارة العربية فى شتى الأقطار والأمصار وكانت أبواقا معبرة عن رغبات هذه الامة ، وصيحة مدوية للمناداة بمطالبها وصورة ناطقة لآلامها وآمالها . ولذلك أجمع المفكرون جميعا على قوة الصحافة وعلو رسالتها ، وسموأهدافها فقال نابليون الاول : اننى أوجس خيفة من ثلاث جرائد أكثر مما أوجس من مائة ألف مقاتل. كما قال وليم ستيد :«الكاتب السياسى يرتعد من منظره رئيس مجمع الشياطين» .

وهذه الاقوال تدل دلالة واضحة على قدرة الصحافة على السيطرة على الرأى العام ، وتحريك دفة الشعب ، فبفضل الصحافة استطاع الحكام أن يسيطروا على أزمة الامور فى البلاد ، وبفضل الصحافة يستطيع الدعاة أن ينشروا مبادئهم ويبثوا أفكارهم ويعلنوا آراءهم فهى وسيلة قوية من وسائل الاعلام لها خطرها ولها أثرها فى المجتمع وهى الصلة بين الزعماء والشعب وفى هذا يقول الصحفى الراحل انطون الجميل : كان حامل القلم كحامل السيف فى يمين كليهما سلاح ماض وأصبح حامل القلم فى العصر الحديث كالقابض على الصولجان ، كلاهما نافذ الكلمة مرعى الجانب ، ولكن ذلك لا يتم للكاتب الا اذا فهم حقيقة مهمته ، وأدرك شرف مهنته ، فاذا لم يكن كل من هز الحسام بضارب ، فكذلك ليس كل من هز اليراع بكاتب .

وأبعد حملة الاقلام نفوذا الآن هم الصحفيون بفضل انتشار الصحف واقبال الكبير والصغير عليها ، وعليـــه يجب أن تكون الصحافة ـ كما قال أحد كبار المفكرين ـ شجرة الحقيقة يغــرد على أفنانها الكتاب الصادقون

وقد حاولت الصحافة العربية منذ مطلعها أن تكون صـــورة صادقة لآمال وآلام الامة العربية ، ومنبرا صادقا للرأى الحر والفكر النير ، فنجحت فى بعض الفترات ، فى حين لم تنجح فى الفترات الاخرى أن تصل الى هذا الهدف فظلت تحت ســـيطرة المتحكمين وسطوة المتسلطين الذين حاولوا أن يشتروا الذمم والضمائر سواء أكانوا من رواد الاستعمار أم من أذناب الاستعمار ، فأتيح لهـم أن يضموا الى جانبهم أصحاب النفوس الضعيفة والقلوب المريضة ، على حين رفض أنصار الحرية أن يخضعوا لنفوذهم أو يخنعوا لسلطانهم

وقد انطلقت شرارات متألقة من الشرق العربى الى كافة أنحاء العالم وفى أوربا وأمريكا لنشر اللغة العربية والفكر العـــربى ، ولتكون لسان صدق عن رغبات العرب وسياط عذاب على المستعمرين والمستبدين ، وكانت هذه الشرارات صحفا مطبوعة تحمـل الثقافة العربية والعقلية العربية ، والفكر العربى ، والمجد العربى !

فمن الصحف العربية التى ظهرت فى أوربا صحيفة « آل سام » التى أصدرها الكاتب الاديب « رزق الله حسون » وكان يتولى بنفسه صف حروفها وطبعها فى داره فى قرية واندزورث وكان يهدف الى استثارة الرأى العام الاوربى ضد حكم الاتراك للتخلص من استبدادهم فى الشرق العربى ·

وصدرت صحيفة « مرآة الاحوال » عقب احتجاب صحيفة « آل سام » وكان يشترك فى تحريرها الدكتور لويس صابونجي وكانت شديدة النقد للحكم التركى والاستبداد السلطانى ، واستطاعت أن تتغلغل الى جنبات العالم العربى غير أن المسئولين لم يلبثوا أن أوقفوا اصدارها ·

وفى عام ١٨٧٩ أصدر رزق الله حسون نشرة نصف شـــهرية أطلق عليها « حل المسألتين الشرقية والمصرية » ومن أجل البحث فى

سياسة مصر خصوصا والشرق الاوسط عموما • وفي عــام ١٨٨٠ أصدر الدكتور لويس صابونجي بعد وفاة زميله رزق الله حسون صحيفة عربية فى انجلترا أطلق عليها « الخلافة » وجعل شعارها « حرية واستقلال ونجاح واقبال » وقد قامت هـــذه الصحيفة بدور كبير في اثارة الرأى العام ضد الحكم التركي والطغيان الحميدى ، وكانت مقالاتها تحمل طابع الحماسة المتدفقة والشـــعور المتأجج والمناداة بالتخلص من الحكم العثمانى بشتى الطرق ومختلف الذرائع وتحرير الوطن العربى من هذه العناصر الهدامة حتى يأخــذ سمته وطريقه فى سبيل الحرية والتقدم •

ومن أروع مقالات هذه الصحيفة مقالة « حى على الاستقلال » ومقالة « أيها الابطال » وقد حاول الاتراك أن يؤثروا على صاحبهــا لايقاف اصدارها ، وتدخلت السلطات البريطانية لمصلحة الاتراك بيد أن الدكتور لويس صابونجي رفض فى شدة أن يستجيب لرأى الاتراك رغم الوعود الخلابة ، والاموال الطائلة التى وعده بها عملاء الاتراك العثمانيين وأنصار الاستعمار فى بريطانيا •

ولما اضطر لويس صابونجي الى اغــلاق صــحيفته تحت تأثير السلطات الحاكمة فى انجلترا ، وبدافع تهدد البريطانيين أصــدر صحيفة أخرى تحمل عنوان « الاتحاد العربى » وكانت هذه الصحيفة ترمى الى « ربط الشعوب التى تنطق باللغة العربية حتى يكون لها كيان واحد مستقل » وقد أقلقت هذه الصحيفة مضاجع البريطانيين وغيرهم من أعوان الاستعمار فعملوا جاهدين على ايقافها بعد ما تبين لهم الخطر الجسيم الذى يهددهم من جراء تكتل الامة العربيـــة واتحاد العرب وانطلاق تيار القومية العربية ، فأغلقت هذه الصحيفة بعد ثلاثة أعداد من صدورها •

وفى عام ١٨٨٤ عاد لويس صابونجي فأصــدر فى انجلترا صحيفة « النحلة » عالج فيها المسألة المصرية السودانية فى صراحة تامة ، وأسلوب أمين •

ولما ضعفت صحة لويس صـــابونجي غادر انجلترا الى لوس

انجلوس فى كاليفورنيا الشمالية ـ وهناك اغتالته يد أثيمة وكان يبلغ فى ذاك الوقت الثانية والتسعين من عمره ٠

وفى عام ١٨٩٢ أصدر فى لندن حبيب سلمونى اللبنانى صحيفة عربية أطلق عليها « ضياء الخافقين » وكانت صحيفة أدبية ممتعة حملت الثقافة العربية الى الغرب واطلعت الغربيين على صفحات مشرقة من الادب العربى الدفين ، ثم أصدر « سليم سركيس » فى لندن صحيفة رجع الصدى التى نشر فيها كتابا الى السلطان عبد الحميد جاء فيه « لم يبق من عمرى الا أيام وساعات معدودة ٠٠ وأريد أن أبسط أمام عرشكم آرائى الاخيرة وهى آراء محزنة اتضحت لى بعد خبرة طويلة تاعسة »

وكانت هذه الصحيفة تحمل طابع الصراحة التامة والدفاع الصادق عن العرب والعروبة ، ومبادىء الحرية والاستقلال وعدم السيطرة أو الاستغلال فى أرجاء الوطن العربى ٠

على أن يعقوب صنوع قام بدور كبير فى نشر الصحافة العربية والدفاع عن القضايا العربية فى باريس ، وبرغم أن صحفه كانت تحمل طابع السخرية والدعابة بيد انها كانت سخرية مريرة، ودعابة قاسية تصل الى أغوار المجتمع العربى ، وتوضح أدواءه الخفية ، وعيوبه ومثالبه ، وتحاول تخليصه من التقاليد القديمة البالية ٠

وقد أهدى السيد جمال الدين الافغانى الى يعقوب بن صنوع صورته بعد أن وقع عليها بخط يده تقديرا لهذه الجهود التى يقوم بها فى خدمة القضية العربية ٠

وقد صدر العدد الاول من مجلة أبو نظارة فى ٢١ ربيع الاول سنة ١٢٩٥ بمدينة القاهرة وكان اسمها « أبو نظارة زرقاء » وتحت هذه العبارة كتبت جريدة « مسليات ومضحكات » ٠

وقد خاضت هذه الصحيفة فى كثير من مشاكل مصر والمجتمع العربى ولم يتورع عن مهاجمة الموظفين الفرنجة والاتراك بل لم يخش مهاجمة الامراء والوزراء بل لم يهب أن يهاجم الخديو نفسه بأسلوب قاس عنيف وشرع يهاجمه تحت اسم محجب هو « شيخ الحارة »

ريمثل الظلم والجور والطغيان والاستبداد . ويقول فيه على لسان الحدق كلاما يبعث على الثورة ويدعو الى الانقلاب ومثال ذلك قوله « وساكتين عليه ليه . اتشكره ، وقدموا فيه عرضحالات لشيخ التمن اللى هو أكبر منه ويقدر يعزله » ويقصد بذلك الخليفة العثمانى .
وكان الفلاح المصرى فى صحيفة « أبو نظارة زرقاء » يسمى « أبو الغلب » وكريم حليم هو الامير حليم عم الخديو كما كانت هناك أسماء أخرى لشخصيات من صميم الشعب يحاول الكاتب أن يوضح دورها فى المجتمع العربى .

وضاق الخديو اسماعيل بهذا الصحفى الجرىء وحاول أن يشترى ذمته وضميره بيد انه رفض ذلك فى أباء وشمم وقال لأحد أذناب الخديو « قل لاسماعيل ان كان هو خائنا فأنا لست كذلك وان كنوز العالم كلها لا تساوى ظل شرفى » .

وقد غضب الخديو اسماعيل شديدا عندما نمى اليه نبأ عصيان يعقوب بن صنوع فأمر بالقاء القبض على بائعى صحيفة «أبو نظارة زرقاء» كما أشيع فى القاهرة أن محرر الصحيفة وجد صريعا فى سريره ويظهر أن مصدر هذه الاشاعة أن الخديو اسماعيل كان قد خلف بعض آتباعه باغتياله .

وقد هاجر يعقوب بن صنوع الى فرنسا فى صيف عام ١٨٧٨ وكان خاوى الوفاض لا يملك من متاع الدنيا ما يقيم أوده بيد أن رجال الفكر الاحرار عاونوه على أن يعيش حياة كريمة .

وقد أصدر فى باريس صحيفة أطلق عليها « رحلة أبى نظارة زرقاء الولى » ثم أصدر بعد ذلك مجلة أبو نظارة زرقاء وتحمل نفس العنوان الذى كانت تحمله شقيقتها فى مصر ثم غير العنوان الى صحيفة «النظارات المصرية» ثم «أبو صفارة» ثم أطلق على صحيفته « الحاوى » .

وكانت صحفه تدخل سرا الى مصر وتباع بالآلاف وكان غالبا ما يضع صحفه فى مجلات مصورة وفى كراسات الموسيقى وبين أوراق كتب من حجم الثمن وفى مجموعات للرسم وقد وضع فى الجرائد التى نشرت صورة الخديو توفيق عام ١٨٧٩ أكثر من ألف

نسخة من صحيفته ولم يكتف بارسالها الى المشتركين الكثيرين بل بعث بها أيضا الى جميع أصدقائه ومعارفه وقد تلقى الخديو نفسه واحدة من تلك الصحف المصورة فوجد صحيفة يعقوب فيها . وغضب غضبا شديدا لهذه الجرأة العظيمة وخاصة لما وجدانه نشر فى صحيفته نص الخطاب الذى أرسله له الخديو يطلب منه فيه العودة الى مصر ويعده باحدى الرتب فرفض هذا العرض قائلا : « انى أفضل أن أعيش فى المنفى على أن أكون غنيا فى خدمة طاغية » .

وفى عام ١٨٨٥ تمكن من ادخال أربعة آلاف نسخة من صحيفته بوضعها فى « مرتبة سرير » ووسادتين لسيدة فقيرة عائدة الى مصر ولم يلحظ رجال الجمرك شيئا وقد شكرته تلك السيدة الفقيرة على الجرائد التى تبرع لها بها وقالت : أنها ربحت من بيعها أكثر من خمسمائة فرنك .

وقد قيل له أن النسخ التى كانت تضبط بين الحين والآخر فى الجمرك كان الموظفون يقرءونها أولا ثم يعطونها أصدقاءهم ومعارفهم فاذا ما انتهى هؤلاء من قراءتها باعوها الى الباعة السريحة بواقع خمسة فرنكات لكل مائة نسخة وكان الباعة يوزعونها سرا بثمن مرتفع جدا .

وبرغم أن يعقوب بن صنوع كان يشكو من غلاء الطباعة فى باريس وتكاليف الرسامين والبريد فانه ظل يصدر صحيفته فى عزم واصرار وكان يساهم معه فى تحرير صحفه نخبة من المفكرين العرب الاحرار وكان من بينهم السيد جمال الدين الافغانى الذى نشر عدة مقالات فى صحفه منها مقال الشرق والشرقيين الذى نشره فى العدد الثانى من أبى نظارة زرقاء السنة السابعة وتوسط الصفحة رسم كامل للسيد جمال الدين الافغانى الذى استغرق مقاله أربع صفحات كاملة هى حجم العدد كله .

وكان يعقوب بن صنوع يلجأ الى المحاورات من أجل التهكم والسخرية كما كان ينتقد الخديو اسماعيل الذى كان يسرف فى فرض الضرائب لا ليعمل لرفع الثروة القومية ولكن ليزيد من دخله .

وغير يعقوب بن صنوع ابتداء من العدد الثامن الصادر فى السنة

التالثة بتاريخ ٢١ ابريل عام ١٨٩٢ عنوان الصحيفه الى «أبو نظارة زرقاء لسان حال الامة المصرية الحرة » وقد وضح فيها الخطر المحدق بالقضية الوطنية كما صور فيها مأساة ضرب الاسكندرية والحريق الذى اندلع في مبانيها والمذابح التى دارت فى شوارعها وصور حزنه الدفين على هذا الحادث الاليم ويوضح كذب الانجليز بتحميل مغبة هذا الحريق للمصريين ويدعو الجند الى الجهاد ، فيقول : « ما لها أصل ولا فصل أخبار التلغراف لان جميعها صادرة من كلب البحر سيمور فلا أصدق أن عساكر مصرنا الاشراف جند الانسانية تحصل منهم أمور الجهاد المصرى يموت فى حب وطنى العزيز فكيف يحرق وينهب البيوت وفى الواقع الى حصل من القتل باسكندرية داجاب علينا الحق لانه عار ولو أن ابتداه من الجريح الدون والملطية اللى وزوهم اسماعيل وتوفيق وماليت المكار » ويوجه كـــلامه الى الامة البريطانية يشكو حكومتها فيقول : « أنت كريمة يا أمة بريتانيـا انما حكومتك بالمظالم مشهورة انتى بتدافعى فى محافلك عن حقوق الاهالى المصرية ، وحكومتك مرادها تخرب بلادنا المعمورة » .

وبرغم أن هذه العبارات كتبت بأسلوب عامى ساذج فانها تحمل من المعانى الشىء الكثير الذى يدل على حرص يعقوب بن صنوع على الدفاع عن القضايا العربية ومهاجمة أعداء العرب والحكومات الاجنبية التى تهدد الشعب العربى .

وقد كان يعقوب بن صنوع ينشر ترجمة فرنسية لما يكتبه باللغة العربية كما كان ينشر مقالات أخرى باللغة الفرنسية .

ومن الصحف التى أصدرها جريدة التودد والمنصف والعـــالم الاسلامى . وقد رسمت على جانب اسمها قباب ومآذن وأشـخاص باللباس العربى الاصيل وباللباس المصرى مما يعطى صورة عن أنها تعبر عن أصحاب تلك المآذن والقباب وقد قرر محررها عشرة فرنكات اشتراكا لها وعشرين فرنكا مع « أبو نظارة » وخمســـــة وعشرين للصحيفتين وما يصدر عنهما من ملاحق .

وقد استهل العدد الاول بقصيدة يبتهل فيها الى الله أن يحفظ

العالم الاسلامى وأن يهبه من الفصاحة ما يجعله يثبت أن الاسلام دين يسر ولا يخاصم دينا من الاديان ·
وقد نشر فى صحيفته هذه كلمات التأييد والتعضيد التى تلقاها من تركيا وايران والعالم العربى كما نشر التحية التى تلقاها من احد محررى جريدة التايمز ، وبرغم أن صحيفة العالم الاسلامى لم تستمر طويلا وكانت قاصرة فى أنبائها على العالم الاسلامى لانها جهد فرد من الافراد لا جهد هيئة من الهيئات أو جماعة من الجماعات فانها كانت صحيفة مدوية للدفاع عن القضايا العربية وشئون الاسلام .

وقد يؤخذ عليها عدم تعمقها فى دراسة القضايا الاسلامية بيد أنها كانت لواء خفاقا باسم الاسلام فى الغرب ·

وكان يعقوب من أبوين غير مسلمين ومع ذلك فانه حفظ القرآن الكريم وكرس حياته لخدمة الاسلام والمسلمين .

ويقول فى ترجمة حياته : « وما أن فتحت عينى لأرى نور الحياة حينما وصلت الى وادى الدموع حتى انزلقت من بين يدى المولدة التى كانت فى استقبالى . وظللت ثلاثة أيام بين الحياة والموت دون أن يعرفوا أن رأسى قد شج ، ولكن كان على أن أعيش لأؤدى رسالة مقدسة الا وهى مكافحة الاباطيل التى تفرق بين المسلمين والمسيحيين ، باظهار سماحة القرآن وحكمة الانجيل ، وهكذا تتسنى لى الملاءمة بين قلوب الفريقين » .

ومن الصحف التى أصدرها أديب اسحق فى باريس صحيفة مصر القاهرة » لنشر ما يعود بالنفع على البلاد العربية وقال فى خطة هذه الصحيفة « اردم مقاومة الباطل ونصرة الحق والمدافعة عن الشرق وآله وعن الفضل ورجاله ، وأوضح معايب اللصوص الذين نسميهم اصطلاحا (أولى الامر) ومثالب الخونة الذين ندعوهم وهما (أمناء الامة) ومفاسد الظلمة الذين نلقبهم جهلا « ولاة النظام » ·

ومقصدى أن أثير بقية الحمية الشرقية وأهيج فضالة الدم العربى وأرفع الغشاوة عن أعين الساذجين ، وأحيى الغيرة فى قلوب العارفين ليعلم قومى ان لهم حقا مسلوبا فيلتمسوه ومالا منهوبا فيطلبوه ،

وليحرجوا من خطة الخسف وينبذوا عنهم كل مدلس يشترى بحقوقهم تمنا قليلا ، ويذيقوا الخائنين عذابا وبيـــلا وليستصغروا الانفس والنفائس فى جنب حقوقهم وليستميتوا فى مجاهـــدة الذين يبيعون أبدانهم وأموالهم وأوطانهم وآلهم ..

وتختتم الصحيفة مقالها بهذه العبارة : فمن قتل دون دمه فهو شهيد ومن قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد، ومن عاش بعد هؤلاء الشهداء فهو سعيد »

وهكذا كان الكاتب يعتقد أن الشرق العربى كله (قومه) وهذا يدل على الصلة الوثيقة ، والوشيجة المتيـــنة التى كانت تربطه باخوانه العرب فى شتى الاقطار والامصار .

ومن الصحف التى صورت حضارة العرب فى أوربا صـــحيفة « منبر الشرق » وقد صدر العدد الاول فى مدينة جنيف فى يوم الاحد « من فبراير عام ١٩٢٢ (٩ من جمادى الثانية عام ١٣٤٠) واستمر صدورها نحو اثنى عشر عاما . وقد كانت هذه الصحيفة تصدر باللغتين العربية والفرنسية بيد انها اكتفت بالصدور بلغة واحدة وهى اللغة الفرنسية وكانت خطتها أن يكون الشرق للشرقيين .

وقد ظلت تصدر فى جنيف حتى عادت للصدور مرة أخرى فى القاهرة عام ١٩٣٨ ٠ وقد صدرت فى العصر الحديث عدة صحف فى أوربا وروسيا كما أصدر الدكتور محمود عزمى فى انجلترة عام ١٩٣٣ صحيفة تسمى « العالم العربى » وصدرت فى نيويورك جريدة الهدى للدكتور أحمد زكى أبى شادى وجريدة البيان ، كما صدرت فى بوينس ايرس بالارجنتين جريدة المواهب وجريدة السلام ٠

ومن الصحف التى كان لها أكبر الاثر والخطر فى القرن الماضى صحيفة العروة الوثقى التى تخصص لها فصلا من هذا الكتاب لاهميتها وأهمية صاحبها السيد جمال الدين الافغانى ومحررها الامام محمد عبده ، وقد قامت بعض الصحف فى أوربا باقتفاء أثر هذه الصحيفة فى نشر الدعوة الاسلامية والدفاع عن المسلمين كما نهضت فى آسيا صحف كثيرة تدافع عن الاسلام وتدعو الى أن يتمسك أبناؤه بالعروة الوثقى ٠

جريدة العروة الوثقى

رسالة صادقة لتحرير المجتمع العربى

العروة الوثقى لا انفصام لها وهى فى الوقت نفسه اسم لجريدة صدرت فى باريس فى القرن الماضى أو فى عام ١٨٨٤ على وجه التحديد وأنشأها فيلسوف الاسلام ، وحكيم الشرق الطائر الصيت السيد جمال الدين الافغانى ، ويهدف فيها الى الوحدة الدينية وجمع شتات المسلمين فى عروة وثقى لا انفصام لها ٠

وكان يدير سياستها الافغانى نفسه أما محررها الاول فكان الشيخ محمد عبده ويبدو من افتتاحية العدد الاول أن الاتجاه الدينى فيها يغلب كل اتجاه آخر ، فان روابط المسلمين الملية أقوى من روابط الجنسية واللغة وما دام القرآن يتلى بينهم وفى آياته ما لا يذهب على أفهام قارئيه فلن يستطيع الدهر أن يذلهم »

كما كانت هذه الجريدة تهتم بدفع ما يرمى به الشرقيون عموما والمسلمون خصوصا من التهم الباطلة التى يوجهها اليهم من لا خبرة له بحالهم ، ولا وقوف على حقائق أمورهم وأبطال زعم أن المسلمين لا يتقدمون الى المدنية ما داموا على أصولهم التى فاز بها آباؤهم الاولون ٠

ودافعت العروة الوثقى عن القضية المصرية دفاعا مجيداً ، وربطت هذا الدفاع بالدين وجعلت ساعة الخلاص من الاحتلال ساعة الفرح عند المسلمين جميعا فى مشارق الارض ومغاربها اذ أن مصر مناط أمل المسلمين عموما ٠ أن مصر تعتبر عندهم من الاراضى المقدسة ولها فى قلوبهم منزلة لا يحلها سواها نظرا لموقعها من الممالك الاسلامية ولانها باب الحرمين الشريفين ٠ فاذا كان هذا الباب أمينا كانت خواطر المسلمين مطمئنة على تلك البقاع ، والا اضطربت أفكارهم ، وكانوا فى ريب من سلامة ركن عظيم من أركان الديانة الاسلامية ، ان الخطر الذى ألم بمصر نفرت له أحشاء المسلمين وتكلمت به قلوبهم ولن تزال الامة تستنفرهم ما دام الجرح نفارا ٠٠»

اما عن منهج الجريدة الذى اتخذته لنفسها وسارت على هديه ومنواله فهو أنها ستأتي في خدمه الشرقيين على ما فى الامكان من بيان الواجبات التى كان التفريط فيها موجبا للسقوط والضعف ، وتوضيح الطرق التى يجب سلوكها لتدارك ما فات والاحتراس من غوائل ما هو آت وتراعى فى جميع سيرها تقوية الصلات العمومية بين الامم وتمكين الالفة فى أفرادها ، وتأييد المنافع المشتركة بينها والسياسيات القويمة التى لا تميل الى الحيف والاجحاف بحقوق الشرقيين .

وكانت الجريدة ترسل أعدادها الى من تعرف أسماءهم مجانا بدون مقابل حتى يتداولها الاميروالحقير والغنيوالفقير ، وقد ضمنت الجريدة دعوتها الى القراء بهذه العبارة « ومن لم يصل الينا اسمه فما عليه الا أن يكتب الى ادارة الجريدة بالاسم المعروف به ومحل اقامته ، على النهج الذى يريده والله الموفق »

وهذا يدل دلالة واضحة على أن منشئها جمال الدين الافغاني ومحررها الامام محمد عبده لم يكونا مضنين بمال أو جهد فى سبيل نشر الدعوة الاسلامية والمناداةبالفضيلة وتحريرالاوطان الاسلامية من ربقة الاستعمار ونير الاستعباد وحوزة الاستغلال ولم يكونا هادفين الى مال أو ثراء ، أو نفوذ أو جاه انما كانايلتمسان نشر الدعوة الاسلامية وبث النخوة الوطنية . بمختلف الوسائل وشتى الذرائع مهما كلفها ذلك من عرق ونصب وكد وكفاح وغربة عن الاهل والاوطان والاحباب والخلان حتى يرحل المستعمر وترفرف ألوية الحرية على العالم الاسلامى وقد رحبت البلاد الاسلامية ترحيبا عظيما بصدور هذه الجريدة وظلوا يتسابقون الى الحصول على عدد من أعدادها ، حتى اذا ما ظفروا به تناقلته الايدى فى شغف ولهف وقد أحس الانجليز بخطرها قبل صدورها ، فهاجمت الصحافة الانجليزية بمجرد أن نمى اليها خبر اصدارها والى ذلك تشير جريدة العروة الوثقى فى العدد الخامس. فتقول : « عزمنا على انشاء جريدتنا هذه فعلم بذلك بعض محررى الجرائد الفرنساوية فكتبوا عنها قبل صدورها غير مبينين لمشربها ولا كاشفين عن حقيقة سيرها فلما وقف على الخبر محررو الجرائد

الانجليزيه المهمة أخذتهم الحدة ، وأنذروا حكومتهم بما تؤثر هـــده الجريده فى سياسه الانجليز ونفوذها فى البلاد الشرقية ، وألحوا عليها ان تعد كل وسيله لمنع الجريدة من الدخول فى البلادالهنديه، والبلاد المصريه . بل تطرفوا فنصحوها ان تلزم الدولة العثمانية بالحجر عليها . »

وتمكنت السلطات البريطانية من منع الجريدة من دخول الهند ومصر بيد أن صوت الحريه لا يخفت أو يذهب أدراج الرياح . انما استطاع بعض المصريين الحصول على أعداد من هذه المجلة وسرعان ما دب أثرها فىنفوسهم . فزادت حماسةواشتعالا فى تحرير وطنهم من المستعمر الغاصب .

وعندما تمكن عملاء الاستعمار من مصادرة العروة الوثقى فى مصر احتد أســـلوبها تجاه أذناب الانجليز وتمنت ان يـكون بين المصريين من يستطيع ولو باقسى الوسائل ابطال هذه الصفقة ونقض هذه البيعه وتقصد صفقه الفرص التى كان يتفاوض فيها نوبار .

وقد وضحت الجريدة سماحة الاسلام وسماحة خلق المسلمين اذ لم يسلك المسلمون فى وقت ما سلك الالزام بدينهم . والاجبـار على قبوله ، مع شدة بأسهم فى بدايات دولهم وتعلقاهم فى افتتـاح الاقطار ، واندفاع هممهم للبسطة فى الملك والسلطة انما كانت لهم دعوة يبلغونها فان قبلت والا استبدلوهابرسم مالىيقوم مقام الخراج عند غيرهم مع رعاية شروط عادلة تعلم من كتب الفقه الاسلامى . هذا على خلاف متنصرة الرومانيين واليونانيين أيام شوكتهم الاولى فانهم ماكانوا يطأون أرضا الاويلزمون أهلها بخلع أديانهم والتطوق بدين أولئك المتسلطين وهو الدين المسيحى كما فعـــلوا فى مصر وسوريا بل فى البلاد الافرنجيه نفسها .

وقد مضت العروة الوثقى توضح وجهة نظرالمستعرض فى الغاء الفكرة الدينية لبث الفرقة بين المسلمين اذ تأكد لديهم أن أقوىرابطة بين المسلمين هى الروابط الدينيه وأدركوا أن قوتهـــم لا تكون الا بالعصبية الاعتقادية ولاولئك الافرنج مطامع فى ديار المســـلمين وأوطانهم ، فتوجهت عنايتهم الى بث هذه الافكار الساقطة بين أرباب

الديانه الاسلامية ، وزينوا لهم هجر هذه الصلة المقدسة ، وفصم حبالها لينقضوا بذلك بناء الملة الاسلامية ويمزقوها شيعا وأحزابا

والجريدة بتخصيصها المسلمين بالذكر أحيانا ومدافعتها عن حقوقهم تقصد التشقاق بينهم وبين من يجاورهم فى أوطانهم ويتفق معهم فى مصالح بلادهم ويشاركهم فى المنافع من أجيال طويلة فليس هذا من شأن الجريدة ولا تميل اليه ولا يبيحه الاسلام ولا تسمح به الشريعة ولكن الغرض « تحذير الشرقيين عموما والمسلمين خصوصا من تطاول الأجانب عليهم والافساد فى بلادهم ، وقد تخص المسلمين بالخطاب لانهم العنصر الغالب فى الاقطار التى غدر بها الاجنبيون وأذلوا أهلها أجمعين ، واستأثروا بجميع خيراتها » .

وفى مقالة نارية مضت الجريدة توضح واجب المسلمين فى التآلف والتآزر ، والتعاطف والتكامل ، وكان عنوان المقالة الآية الكريمة : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » فقال : « ان للمسلمين شدة فى دينهم ، وقوة فى ايمانهم ، وثباتا على يقينهم ، يباهون بها من عداهم من الملل ، وان من عقيدتهم أوثق الاسباب لارتباط بعضهم ببعض ، ومما رسخ فى نفوسهم أن فى الايمان بالله وما جاء به نبيهم صلى الله عليه وسلم كفالة لسعادة الدارين ، ومن حرم الايمان فقد حرم السعادتين ، ويشفقون على أحدهم أن يمرق من دينه أشد مما يشفقون عليه من الموت والفناء » .

وانطلقت تحدد دستور الوحدة بين المسلمين فقالت : المسلمون بحكم شريعتهم ونصوصها الصريحه مطالبون عند الله بالمحافظة على ما يدخل فى ولايتهم من البلدان ، وكلهم مأمور بذلك لا فرق بين قريبهم وبعيدهم ولا بين المتحدين فى الجنس ولا المختلفين فيه ، وهو فرض عين على كل واحد منهم ان لم يقم قوم بالحماية عن حوزتهم كان على الجميع أعظم الآثام ومن فروضهم فى سبيل الحماية ، وحفظ الولاية بذل الاموال والارواح وارتكاب كل صعب واقتحام كل خطب ، ولا يباح لهم المسالمة مع من يغالبهم فى حال من الاحوال حتى ينالوا الولاية خالصة لهم من دون غيرهم ، وبالغت الشريعة فى طلب السيادة منهم على من يخالفهم الى حد لوعجز المسلم عن التخلص من سلطة غيره لوجبت الهجرة من دار حربه وهذه قواعد مثبتة فى الشريعة الاسلامية

يعرفهـــــا أهل الحق ولا يغير منها تأويلات أهل الاهواء ، وأعوان الشهوات فى كل زمان ، والمسلمون يحس كل واحد منهم بهاتف يهتف من بين جنبيه يذكره بما تطالبه به الشريعة وما يفرضه عليه الايمان وهو هاتف الحق الذى بقى له من الهامات دينه » .

وعلى هذا النحو مضت الجريدة تطالب بتحرير أفغانستان من نير الانجليز كما مضت تطالب بتحرير مصر من جنـود الاحتـــلال البريطانيين وتخليص مراكش من الجنود الفرنسيين .

وفى ١٥ من مايو عام ١٨٨٤ زادت حمية الجريدة فى الدفاع عن المصريين فنشرت فى افتتاحيتها مقالا مستفيضا جاء فيه « هذه جريدة قامت بالدفاع عن المصريين والاستنجاد لهم ، ولها ســـعى بل كل السعى لخيبة آمال أعدائهم ، ولا ترى من مشربها مدح زيد ولا القدح فى عمرو فان المقصد أعلى وأرفع من هذا ، وانما عملها سكب ميـاه النصح على لهب الضغائن لتتلاقى فى قلوب الشرقيين جميعا عـلى الصفاء والوداد ، تلتمس من أبناء الامم الشرقية أن يلقوا ســـلاح التنازع بينهم ، ويأخذوا حذرهم وأسلحتهم لدفع الضـــوارى التى فغرت أفواهها لالتهامهم » .

وفى مقالة : « وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » مضت تعدد مجد المسلمين فى العصور الخوالى فقالت «أظلت ولاية الاسلام ما بين نقطة الغرب الاقصى الى تونكانى على حدود الصين فى عرض ما بين قازان من جهة الشمال وبين سرنديب تحت خـط الاستواء أقطارا متصلة وديارا متجاورة يسكنها المسلمون ، وكان لهم فيها السلطان الذى لا يغالب ، وأخذ بصولجان الملك منهم ملوك عظام فأداروا بشوكتهم كرة الارض الا قليلا ، ماكان يهزم لهم جيش ولا ينكس لهم علم ولا يرد قول على قائلهم .

تم مضت الجريدة تقول «والمسلمون اليوم هم يملئون تلك الاقطار التى ورثوها عن آبائهم وعددهم لا ينقص عن مائتى مليون وأفرادهم فى كل قطر بما أشربت قلوبهم من عقائد دينهم أشـــجع وأسرع اقداما على الموت ممن يجاورهم ، وهم بذلك أشد النـــاس ازدراء بالحياة ، وأقلهم مبالاة بزخرفها الباطل غير أن الجريدة أرجعت وقوف المسلمين فى سيرهم بل تأخرهم عن غيرهم الى عدم الترابط ،

فأخذت ممالكهم تنتقص أطرافها، وتتمزق حواسيها مع أن دينهم يرسم عليهم ألا يدينوا لسلطه من يخالفهم ويعمل على الاستئثار بالحكم عليهم وأن المسلمين لا يحتاجون في صيانه حقوقهم الا الى تنبه أفكارهم لمعرفة مابه يكون الدفاع ، واتفاق آرائهم على القيام به عند اللزوم وارتباط قلوبهم الناشزة عن احساس بما يطرأ على الأمة من الأخطار ٠

« أليس لكل واحد منهم أن ينظر الى أخيه بما حكم الله في قوله : « انما المؤمنون اخوة » فيقيمون بالوحدة سدا يحول عنهم هذه السيول المندفعة عليهم من جميع الجوانب ٠

هذه صفحات مطوية من العروة الوثقى وهي صفحات لاتزال مشرقة متألقة رغم تطاول السنين وتقادم العهد ، وقد صدر منها ثمانية عشر عددا بلغ فيها الشيخ محمد عبده الذروة في روعة الأسلوب ودسامة المادة ، والحرص على التمسك بأهداب الدين الحنيف ، وتخليص الوطن العزيز من براثن المغتصب الأثيم، وقد أقفلت الجريدة في ٢٦ ذى الحجة عام ١٣٠١هـ الموافق ٢٦ أكتوبر عام ١٨٨٤ ففقدت الصحافة نجما زاهيا في سمائها ، ومشعلا متألقا هاديا في فضائها يهدى المسلمين الى حقائق دينهم ، ودقائق شريعتهم الغراء ، والى حب أوطانهم وفدائها بالمهج والأرواح ٠

وعندما عاد محرر العروة الوثقى الامام محمد عبده الى مصر بعد أن تبينت براءته للحكومة المصرية عين قاضيا جزئيا في المحاكم الأهلية ثم مستشارا في محكمة الاستئناف ثم انتهى به المطاف مفتيا للديار المصرية ٠

أما جمال الدين الأفغاني فقد بقي بعد اغلاق العروة الوثقى في باريس شهورا وفي لندن شهورا أخرى حتى أوائل شهر جمادى عام ١٣٠٣ حيث أزمع السفر الى ايران ٠

الكتاب الثاني

الفصل الأول

مؤامرات من صدر الاسلام

فى هذا الوقت الذى تنبعث فيه فى بعض البلاد العربية محاولات فاشلة ومؤامرات خائبة ضد القومية العربية ، وأنصار القومية العربية ، يطيب لنا أن نقلب صفحات التاريخ لنقرأ بعض صور الغدر والخيانة التى صدرت عن نفوس مريضة وقلوب عليلة ، ونيات أمارة بالسوء ، وقد تم بعض هذه الجرائم فخلف أثرا سيئا فى التاريخ على حين لم يشأ الله تعالى أن يحقق بعضها الآخر فباءت بالفشل والخسران المبين .

ولعل أول صورة من صور الغدر والخيانة تتمثل فى هجرة الرسول الكريم فقد تحالفت عليه قوى البغى والاثم واتفقت قريش فى دار الندوة على قتله والتخلص منه وتحطيم هذا الدين الجديد الذى يدعو الى قلب الاوضاع الاجتماعية الموروثة وانشاء مجتمع جديد ، قوامه التعاطف والتآلف ، والتساند والتآزر وفوضت قريش الى جماعة من الشبان الاشداء ، قتله واهدار دمه حتى يضيع دمه بين القبائل جميعا فلا تستطيع عشيرته ان تأخذ بثأره أو تنتقم من قتلته ولكن الرسول الكريم كما هو معروف فى السيرة العطرة ، استطاع أن يدرك بفطنته وانصاره المخلصين سر هذه المؤامرة قبل تنفيذها . فاتخذ الحيطة وأعد الترتيبات اللازمة لخذلانها ، وهذه حاسة استكشافية وقدرة اخبارية تستحق كل اكبار وتقدير ، فلو أن قريشا تمكنت من الرسول الكريم ، وقتلته ، لضاعت الدعوة فى مهدها ، ولما انتشر الاسلام فى العالمين ، ولتغير وجه التاريخ .

وقد يقول قائل ان الله نفث فى روعه وأطلعه على نية قريش وقد يكون هذا على جانب كبير من الصحة بيد أن التجارب أثبتت فيما بعد أن « جهاز المخابرات » عند الرسول كان ناجحا الى أبعد

حد وكان الرسول يرسل بعض السرايا والاشخاص « لتنطس » الاخبار ولعل أكثر الانتصارات الحربية التى احرزها الرسول تعزى الى احكام الخطة التى نفذها الرسول على ضوء التقارير السرية التى أحضرها انصاره .

المهم أن الرسول استطاع أن يضع يديه على خيوط هذه المؤامرة قبل تنفيذها فبات على بن ابى طالب فى فراشه ، وخرج النبى حتى لحق بالفار وبات المشركون يحرسون « عليا » يحسبونه النبى فلما أصبحوا ثاروا عليه فلما رأوا عليا : رد الله عليهم مكرهم فقالوا : أين صاحبك هذا ؟ فقال : لا ادرى « فاقتفوا اثره فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم الامر وصعدوا الجبل فمروا بالغار فرأوا على بابه نسج العنكبوت وورد أن حمامتين عششتا على بابه وبقية القصة معروفة ومسرودة فى سيرة ابن هشام ومروج الذهب وتاريخ الطبرى ، وتاريخ ابى الفدا وغير ذلك من كتب التاريخ .

وتحدثنا المراجع أن مؤامرة أخرى دبرت للتخلص من الرسول الكريم وكان قوامها « دس السم فى الطعام » وقصة هذه المؤامرة ترجع الى فترة انتصار النبى على يهود خيبر ، اذ استطاع الرسول أن يهدم حصونهم ويهد سلطانهم ويقضى عليهم قضاء مبرما فطلبوا الصلح ، ورفعوا راية الاستسلام ، فأمنهم الرسول على حياتهم واموالهم بيد أن نفوسهم كانت ملأى بالاثم والغضب ، فعولت زينب بنت الحارث زوجة سلام ابن مشكم أن تنتقم ليهود خيبر من الرسول ، فزعمت أنها ستقيم وليمة للرسول لعقد الصلح بين الطرفين ، وأنها ستنحر فيها شاة لتقدمها هدية اليه ، فجلس هو وأصحابه حولها ليأكلوها وتناول عليه السلام الذراع فلاك منها مضغة لم يستسغها ، وكان بشر بن البراء معه قد تناول منها مثل ماتناول . فأما بشر فقد استساغها وازدردها ، واما الرسول فقد لفظها وهو يقول: ان هذا العظم ليخبرنى انه مسموم ! ثم دعا بزينب فاعترفت بجريمتها وقالت : لقد بلغت من قومى ما لم يخف عليك ، فقلت أن كان ملكا استرحت منه ، وان كان نبيا فسيخبره ، ومات بشر بن البراء من أثر السم ، بعد أن سقط على الارض يتلوى من الألم ولم ينفع فيه العلاج واختلف الرواة فى مصير زينب بنت الحارث فقال أكثرهم أن النبى عفا عنها وقدر لها عذرها

بعد الذى أصاب أباها وزوجها فى المعركة ضد المسلمين وذكر رواة آخرون أنها قتلت فى بشر الذى مات مسموما .

والقتل بالسم يوجب القود (١) عند أحمد والشافعى ومالك ان كان الموت قد حدث نتيجة لسقى الجانى المجنى عليه بالسم واذا كان السم قد وضع فى طعام وقدم للمجنى عليه فيجب القود عند أحمد ان كان مثله يقتل غالبا ، وعند مالك يجب مطلقا وفى قول آخر لا قود فى ذلك ، ويستند الشافعى فى قوله بمنع القود بأن المجنى عليه أكله مختارا ، مثله كمن قدم اليه سكين فقتل بها نفسه ولكن تقديم السم يفارق فى الواقع تقديم السكين لانها لا تقدم الى الانسان ليقتل بها نفسه بل تقدم اليه وهو عالم بمنفعتها ومضرتها فأشبه ما لو قدم اليه السم وهو عالم . وقد تمت الجريمة بالنسبة الى بشر وعلى حين أوشكت أن تتم بالنسبة الى النبى . وتنص المادة ١٩٧ من قانون العقوبات على أن من قتل أحدا عمدا بجواهر يتسبب عنها الموت عاجلا أو آجلا يعد قاتلا بالسم أيا كانت كيفية استعمال تلك الجواهر ، وكانت المادة ٢١١ من القانون القديم تعاقب بالاعدام على مجرد اعطاء السم سواء نتج الموت أم لم ينتجه جارية على حكم المادة (٣٠١) الفرنسية :

فالقانون الفرنسى يعتبر جريمة التسميم تامة ولو لم يقض السم على حياة المجنى عليه ، كما حدث فى تقديم السم الى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم . زد على ذلك أن القصد الجنائى متوافر بنية احداث الموت ، والشروع المعاقب عليه بتقديم الطعام المسموم الى المجنى عليه أو وضعه تحت تصرفه .

هذه هى بعض الامثلة للمؤامرات السياسية فى عصر النبوة وان كان الطابع الدينى يغلب على هذه المؤامرات بيد أننا لابد أن نقرر أن السلطة الدينية والسلطة الزمنية فى هذه الفترة كانتا وحدة واحدة وكانت الزعامة الدينية قاعدة جوهرية للسلطة الزمنية وفى ذلك يقول ابن خلدون فى مقدمته : « والخلافة هى حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الأخروية

---

(١) القود هو القصاص وفى الحديث العهد قود أحكام القرآن للقصاص جـ ١ ص ١٣٤ ـ ١٣٥

والدنيوية الراجعة اليها ، اذ ان أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشرع الى اعتبارها بمصالح الآخرة ، فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا به » فالخليفة هو الحاكم الزمنى والحاكم الروحى ، وهذا بخلاف ما نجده فى الغرب فى العصور الوسطى .

وفى عهد عمر بن الخطاب ، بدأت المؤامرات تدبر فى الظلام . وانتهت هذه المؤامرات باغتيال أمير المؤمنين بيد رجل مجوسى أو نصرانى أو فارسى من موالى المغيرة بن شعبة ، وقد روى ابن سعد فى الطبقات أنه لم يلبث حين نزل المدينة عائدا من حجه ان خطب فى الناس يوم الجمعة فذكر نبى الله ، وذكر ابا بكر الصديق ثم قال ايها الناس ، انى رأيت رؤيا لا أراها الا لحضور أجلى ، رأيت ديكا احمر نقرنى نقرتين ، وقال : ايها الناس قد فرضت لكم الفرائض ، وسننت لكم السنن ، وتركتم على الواضحة ، الا أن تضلوا الناس يمينا وشمالا اللهم انى أشهدك على أمراء الانصار فانما بعثتهم ليعلموا الناس دينهم وسنة نبيهم ، وليدلوا عليهم ويقسموا فيئهم بينهم ويرفعوا الى ما أشكل عليهم من أمرهم .

وفى يوم الاربعاء لاربع بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين للهجرة خرج عمر بن الخطاب من منزله قبيل مطلع الفجر ، ليؤم الناس فى الصلاة ، وكان يوكل رجالا بالمسجد بالصفوف يسوونها قبيل كل صلاة مراعاة للنظام ، فاذا اعتدلت الصفوف جاء هو فنظر الى الصف الاول ، فاذا رأى فيه متقدما أو متأخرا علاه بالدرة ، حتى اذا انتظم الجمع فى أماكنهم كبر للصلاة ، ودخل أمير المؤمنين فى تلك الساعة ليستعد للصلاة ، ولم يكد يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، وقد خيم الغبش على المكان فلما شرع ينوى الصلاة ليكبر حدث مالم يكن فى الحسبان حدث أن ظهر على حين غرة رجل يقدح من عينيه الشرر فطعنه بخنجره ثلاث طعنات احداها تحت سرته ، وأحس عمر بن الخطاب بنصل السلاح يوغر فى جسمه ، فالتفت الى المصلين ، وأخذ يصيح وقد أذهلته المفاجأة ، وأدركته الحيرة . ادركوا الكلب فقد قتلنى !

وكان الكلب يسمى فيروز ويكنى بأبى لؤلؤة النصرانى ، وقد حضر الى المسجد متربصا قتله فى هذه الساعة المبكرة من

السحر ، وكان قد أخفى فى نيابه خنجرا قبضته فى وسطه ، وله نصلان حادان وتوارى فى أحد أركان المسجد ، حتى اذا ما دوت التهليلات والتكبيرات فى المسجد . وشرع الناس يتسفاون بالصلاة بعد جريمته ، ثم ولى الأدبار ، ولكن المسلمين تكاثروا عليه من كل جانب وسدوا أمامه السبل ، وحـالوا بينه وبين الفـرار ، فانطلق كالثور الهائج يحاول أن يشق طريقه ، والنصل يلمح فى يده ، ويطعن به المسلمين يمنة ويسرة ، فيسقط منهم من يسقط ويقاوم منهم من يقاوم ، حتى طعن اثنى عشر منهم مات ستة على حد تعبير بعض الرواة ، وتسعة على حد تعبير رواة آخرين ، بيد أن رجلا قوى الشكيمة ، مفتول العضلات أتاه من ورائه فألقى عليه رداءه ، حينئذ تمكن من أن يلقيه أرضا ، وينقض عليه . وحـاول الرجل أن يجرده من سلاحه ، ولكن أبا لؤلؤة أيقن انه مقتول لا محـالة . فطعن نفسه بالخنجر الذى يحمله قبل أن يتمكن من نزعـه المسلمون

وكانت الطعنة التى أصابت عمر بن الخطاب تحت سرته غائرة اذ مزقت الصفاق والامعاء ولذلك أودت بحيـاته وقيل أن عمر لم يستطع الوقوف على قدميه فسـقط لتوه على الأرض ، واستخلف عبدالرحمن بن عوف على الصلاة بالناس ، فصلى بهم بأقصر سورتين من القرآن الكريم وهما « العصر » و« الكوثر »

وقيل بل ماج الناس بعضهم فى بعض لذلك المصاب الفادح الذى نزل بأمير المؤمنين وبطائفة من المسلمين الذين سقطوا صرعى فى أطهر بقعة ضد سلاح الخيانة والغدر وهم يحاولون الامسـاك بتلابيب هذا القاتل الذنيم واشتد اضطرابهم حين رأوا عمر محمولا الى داره على مقربة من المسجد ، وظلوا فى اضطرابهم حتى نادى المنادى : الصلاة عباد الله ! قد طلعت الشمس ! فدفعوا عبد الرحمن بن عوف فصلى بأقصر سورتين .

وهذه الرواية هى الراجحة فى أقوال المؤرخـين ، فليس من المعقول أن تنتظم صفوف المسلمين للصلاة لتوها بعد أن يرو أمير المؤمنين متضرجا فى دمائة ومن حوله أصحابه يسقطون وقد مزقت صدورهم طعنات المجوسى .

حمل عمر بن الخطاب على أثر الحادثة الى داره وتجمهر

النـاس حول بيتـه مستفسرين ، ودخـل الى فراشـه بعض كبـار أهل الرأى . وقال عبد الله بن عباس : فلم أزل عند عمر ، ولم نزل فى غشية واحدة حتى استقر الصبح ، فلمـا افاق نظر فى وجوهنا فقال : أصلى الناس ؟ فقلت : نعم فقال : لا اسلام لمن ترك الصلاة !

وخرج ابن عباس من بيت عمر بن الخطاب بعد أن ضمـد أصحابه جراحه ، ونادى فى الناس كرغبة أمير المؤمنين : ايها الناس أن أمير المؤمنين يقول : أعن ملأمنكم هذا ؟! وقد قصد بذلك أن هذه الحادثة تمت على مرأى ومسمع من المسلمين ، فدوى صـوت الحاضرين كالبرق القاصف مرة واحدة : معاذ الله ! ما علمنا ولا أطلعنا ، فسألهم ابن عباس : من طعن أمير المؤمنين ؟ فقالوا : طعنه عدو الله أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة .

ملأ ابن عباس سمعه بهذه الاجابات الواضحة وهذه البراهين القاطعة ، وشهادة الاثبات التى لا محيص عنها ، ولا شك فيها ، ودخل الى عمر بن الخطاب فأنبأه بأقوال الشـهود ، وأخبره أن المجوسى طعن نفسه بالخنجر نفسه الذى طعن به أمير المؤمنين فأزهق روحه فقال : الحمد لله الذى لم يجعل قاتلى يحاجنى عند الله بسجدة سجدها له قط « ما كانت العرب لتقتلنى ! »

وحضر فى هذه الاثناء أحد الاطباء فسقى عمر بن الخطاب نبيذا ، فاشبه النبيذ الدم حين خرج من الطعنة تحت السرة ، فدعا عبد الله بن عمر طبيبا آخر من الأنصار ثم آخـر من بنى معاوية ، فسقى عمر لبنا فخرج اللبن من الطعنة أبيض لم يتغير لونه ، ولم تجد كل المحاولات التى بذلت لانقاذ حياة أمير المؤمنين اذ سرعان ما لفظ أنفاسه الكريمة ، وفاضت روحه الى بارئها ، وانتهت صفحة حياة خليفة ذى ارادة حديدية ضد قـوى الظلم والطغيان . ونحن لا نستبعد أن يكون للسياسة أصبع فى هذه الجريمة ، فالحقيقة أن الفرس واليهود والنصارى كانت فى نفوسهم ضغينة على العرب عامة وعلى عمر خاصة بعد أن غلبهـم المسلمون على أمرهم ، وتولوا حكم بلادهم ، وانتهى أمر عاهلهم الى الفرار ، بفرار يزدجرد من أرض فارس الى أرض الترك ثم القضاء على دولة الأكاسرة من بنى ساسان .

وقد نصت المعاهدات المعقودة بين الفرس والمسلمين على الاحتفاظ بحقوق العرب كاملة غير منقوصة . فنص صلح أصفهان على « من سب مسلما يلغ منه ، فان ضربه قتلناه » ونص صلح الرى على ان « يقروا للمسلمين يوما وليلة وأن يفخموا المسلم فمن سب مسلما أو استخف به نهك عقوبة ومن ضربه قتل ونص صلح جرجان على « من سب مسلما يلغ جهده من ضربه حل دمه »

ولعل هذه الشروط التى أملاها العرب المنتصرون على الفرس كما لعل حرمانهم من الوظائف الهامة فى الدولة أوما اليها أوغر صدورهم فعولوا على الانتقام من أمير المؤمنين ، الذى يقف خلف هذه الانتصارات الكبرى .

وتقول المصادر الوثيقة ان عبد الرحمن بن عوف رأى السكين التى قتل بها عمر فقال : رأيت هذه السكين امس مع الهرمزان وجفينه فقلت : ماتصنعان بهذه السكين ؟ فقالا : نقطع بها اللحم ! وقال عبد الرحمن بن أبى بكر : قد مررت على أبى لؤلؤة قاتل عمر ومعه جفينة والهرمزان وهم نجى أى يتناجون فيما بينهم ، فلما نعتهم ثاروا فسقط من بينهم خنجر له رأسان ونصابفى وسطه ، فانظروا ما الخنجر الذى قتل به عمر فوجدوه الخنجر الذى لفت عبدالرحمن بن أبى بكر .

وهكذا اتفقت شهادة عبد الرحمن بن عوف مع شهادة عبد الرحمن بن أبى بكر على وجود خطة مدبرة ، ومؤامرة مدبرة فى الظلام وأيد الشهادتين أن النصل الذى قتل به عمر بن الخطاب كان فى ايدى المؤتمرين وهم يتناجون فيما بينهم وما كانت هناك ضرورة لوجود الخنجر ، ولا سيما ان الموقف لا يستدعى الدفاع عن النفس لو أنهم كانوا يتناجون فى أمر يصلح الله به حال البلاد والعباد .

وعلى هذه الصورة البشعة المنكرة تم اغتيال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، ونفذت أدنأ مؤامرة فى تاريخ المسلمين .

ولا خلاف بين الفقهاء بأن القتل بالمحدد يوجب القصاص ، والقتل بالمحدد هو كل آلة لها حد كالسلاح وماجرى مجراه من الاشياء المحددة أى التى تماثله فى تفريق الاجزاء كالمحدد من

الخشب أو ماكان من الزجاج والذهب أو الفضة أو النحاس أو الرصاص ، ويرى جمهور الفقهاء عدم اعتبار القتل عمدا الا اذا ارتكب بآلة قاتلة ، ويشترط الامام ابوحنيفة أن تكون الآلة التى استخدمت فى القتل محددة أى مفرقة الاجزاء فان لم تكن كذلك لا يعد القتل عمدا . وقد ثبت من معاينة السلاح الذى استخدم فى قتل عمر بن الخطاب انه محدد أى مفرق الأجزاء ، وذو نصلين كما كان القاتل متعمدا بقتل عمر مما يغلب على الظن موته به (الشرح الكبير) وكان كما جاء فى البدائع فى القتل العمد «قاصدا اياه كما كان القصد عمدا محضا ليس فيه شبه العدم » .

وقد جاء فى كشف القناع أنه يشترط فى القتل العمد القصد فان لم يقصد القتل فلا قصاص ، وقد توافر القصاص فى أركان هذه الجريمة بل لقد تمت الجريمة مع سبق الاصرار وهو القصد المصمم عليه قبل الفعل لارتكاب جنحة أو جناية ويكون غرض المعد منها ايذاء شخص معين او غير معين وجده أو صادفه سواء كان ذلك القصد معلقا على حدوث أمر أو موقوفا عليه (مادة ١٩٥ ع) .. وقد سبق الأصرار جريمة قتل عمر بزمن فكر فيه المتهم ورتب ما عزم عليه ووازن بين مزاياه واخطاره ، وتدبر عواقبه ، وخرج بعد ذلك مصمما على ارتكاب الجريمة فهو أشد خطرا ممن يقدم عليها بدون تفكير أو تدبر (جارسون مواد ٢٩٦ ــ ٢٩٨ فقرة ٦) .

كما تم فى هذه الجريمة الترصد وهو تربص الانسان لشخص فى جهة أو جهات كثيرة مدة من الزمن طويلة كانت أو قصيرة ليتوصل الى قتل ذلك الشخص أو ايذائه بالضرب أو نحوه (مادة ١٩٦) وقد تم الترصد فى هذه الجريمة اذ انتظر الجانى عمر فى المسجد ثم أجهز عليه . والرأى السائد بين الشراح والمحاكم الفرنسية أن الترصد يستلزم سبق الاصرار ، وان الأول انما هو مظهر من مظاهر الثانى يقترن فيه التصميم بعمل خارجى هو الكمون فى مكان معين لترقب الفرصة الصالحة لتنفيذ ذلك التصميم ففيه زيادة على سبق الاصرار معنى الغدر ..

ولم يكد يتولى عثمان بن عفان الخلافة بعد عمر حتى هبت الفتن من مرقدها ، وانتهى الأمر بمصرعه ضحية المؤامرات السياسية كذلك . وكانت هناك « جمعية سرية » يدير شئونها

« عبد الله بن سبأ » المعروف « بابن السوداء » تناهض عثمان ابن عفان ، وكان عبد الله يهوديا ثم أسلم على عهد عثمان ، فأسس جمعية على مبدأين دينيين أولهما وجوب رجوع محمد عليه الصلاة والسلام الى الدنيا كما قيل برجوع عيسى عليه السلام ؛ والمبدأ الثانى وصاية على بن أبى طالب ، فكان يقول للناس : انه كان لكل نبى وصى ، وعلى وصى محمد ، فمن أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله ؛ ووثب على وصيته ، وان عثمان اخذها بغير حق . وبعث عبد الله بن سبأ دعاته فى شتى الاقطار والامصار لمناهضة عثمان بن عفان ، كما قام « همران بن ابان » فى البصرة لإيغار الصدور على عثمان لانه كان حاقدا عليه اذ ضربه على زواجه بأمرأة في العدة وحرض أهل الكوفة على التظاهر باعداء كما اتهمه اعداؤه باتمامه الصلاة في منى وعرفة وكان الرسول والخليفتان أبو بكر وعمر بعده يقصرونها ، وباخراج ابى ذر من الشام والمدينة ،وكان يعتقد انكل أموال الفيء من حقوق المسلمين وليس للامام أو من يقوم مقامه ان يدخر شيئا منها بل يجب ان تقسم على الناس . وبسقوط خاتم النبى من يده فى بئر أريس ؛ وبمجاباة أهله وأقاربه وبنى عمه واقطاعهم القطائع واغداق الأموال عليهم واستئثارهم بالسلطة وترك المهاجرين والانصار لا يستشيرهم ولا يوليهم حتى أن عمرو بن العاص كان يضجر من عثمان فى أواخر أيامه . فلما انتهى عثمان من احدى خطبه صاح به عمرو : اتق الله ياعثمان فانك قد ركبت أمورا وركبناها معك فتب الى الله نتب !

وانتهى أمر الثوار بمحاصرة داره ليحملوه على خلع نفسه بل انهم منعوا عنه الماء حتى يذعن لأوامرهم ، ودخل عليه وفد منهم برأسه « ابن عديس » وسألوه عن استبداد والى مصر عبد الله بن سعد بن أبىالسرح ، وأظهروه علىالكتاب الذى أرسله اليه فحلف انه ما كتبه ولا علم به ، فسألوه عمن كتبه فقال لا أدرى ! فقالوا كيفتكتب فىمثل هذه الامور العظيمة ،وتدلسعليهاكاتبك وانت تعلم ؟ فان كنت كاذبا قد استحققت الخلع وان كنت صادقا فقد استحققت أن تخلع نفسك لضعفك عن هذا الأمر وغفلتك وخبث بطانتك فاخلع نفسك كما خلعك الله فأجابهم عثمان انى لا أنزع ثوبا البسنيه الله تعالى ، ولكنى أتوب وأنزع قالوا له : لو

كان هذا أول ذنب تبت منه فبانا ، ولكنا رايناك تتوب ثم تعود ولسنا منصرفين حتى نخلعك أو نقتلك ، أو تلحق أرواحنا بالله تعالى ، وان منعك أصحابك نقاتلهم حتى نخلص اليك وخرج الوفد حتى يترك عثمان يفكر .

وفى هذه الاثناء بلغ الثائرين خبر وصول المدد الذى طلبه عثمان ، فحاول بعضهم أن يدخل عليه ليقتله فمنعهم الحسن والحسين عليهما السلام ، ومحمد بن طلحه ، وابن الزبير ، وأبو هريرة ، وسعيد بن العاص .

وجد الثوار فى أمرهم ، واقتحموا عليه الدار فأشرف على المتآمرين وقال لهم : انشدكم بالله ولا أنشد الا أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم : ألستم تعلمون أن رسول الله قال : من جهز جيش العسرة فله الجنة فجهزته ؟ ألستم تعلمون أنه قال :من حفر بئر رومة فله الجنة فحفرتها ؟

ودخل عليه احد الثوار فقال : اخلعها وندعك فأبى فخرج الرجل ودخل ، آخر ، وكلهم يعظه ويخرج ، ثم دخل عليه محمد ابن أبى بكر فحاوره طويلا وخرج ، ثم دخل عليه الغوغاء من الثائرين ، فطعنه الغافقى بحديدة كانت معه ، وجاء غيره ليضربه بسيفه ،فأكبت عليه زوجته نائلة ،وتلقت السيف عنه بيدها فقطع أصبعها ، ثم ضربوا عنقه ، وانتهبوا بيته وبيت المال ، وكان ذلك فى الثامن عشر من شهر ذى الحجة عام ٣٥ هـ (٥٥٦ م) .

وبلغ الخبر عليا وطلحة والزبير وسعدا ومن كان بالمدينة قدخلوا على عثمان فوجدوه مقتولا فقال على لابنيه : كيف قتل أمير المؤمنين وانتما على الباب ، ورفع يده ، فلطم الحسن وضرب الحسين ، وشتم محمد بن طلحة ، وعبد الله بن الزبير ؛ وخرج وهو غضبان حتى أتى منزله .

وهكذا تمت هذه المؤامرة التى أدى تنفيذها فيما بعد الى فرقة المسلمين وانقسامهم شيعا وأحزابا والواقع ان الباحث فى مقتل عثمان بن عفان يصادفه بعض الجرائم لا جريمة واحدة ، فقد منع الثوار عن عثمان الماء حتى يخلع نفسه عن الخلافة ، ونحن لا نستطيع ان نقطع بأن الثوار أرادوا احداث جريمة القتل بالترك

أو الامتناع كما يســـميها المشرعون . وهى مبحث اختلف فيه العلمـــاء من قديم وأفاض فيه علمـــاء الألمـــان خاصة ومنهم فون ليست .

فاذا كان الثوار شرعوا فى احداث جريمة القتل بمنع الماء عن عثمان حتى يموت عطشان ، والترك نفسه يصلح سببا لجريمة لان الفعل والترك كلاهما من صور الارادة الانسانية العاملة . فى حين يرى بعض العلماء ان الترك عدم والعدم لا ينشىء الا العدم ، ولا يمكن أن يبنى موجود على معدوم أو بعبارة أخرى لا يمكن أن يكون العدم سببا فى نتيجة ايجابية .

ولكن الذى يحبس شخصا بغير حق ، ويمنع عنه الطعام والشراب قاصدا قتله يعاقب على القتل عمدا اذا مـــات السجـــين جوعا أو عطشا ، بل ان الأم التى تمتنع عن تغذية ابنها الى أن يموت جوعا أو عطشا تعتبر قاتلة وتعاقب بعقوبة القتل العمد .

بيد أن الأمر لم يقف عند جريمة الشروع فى القتل بالترك أو الامتناع انما امتدت الى القتل بآلة محددة عمدا مع الترصد وسبق الاصرار ، فنحن أمام جريمة عمدية كاملة الأركان توافر فيهـــا العنصر المادى الذى يتمثـــل فى نشاط الفاعل الملموس أو فيما يجريه خارج شخصه . ففى هذه الجريمة مثلا يتكون الركن المادى من الطعن بالســـلاح وموت المجنى عليـــه وعلاقة السببية بينهما .

أما الركن المعنوى فى هذه الجريمة فهو ذلك الجانب من نشاط الفاعل الذى يجرى فى داخليته أو فى نفسه وفى الجريمة المتقدمة يتكون من ارادة الجانى أو الجناة والطعن بالســـلاح ، واتجاه القصد الى الموت وازهاق الروح .

وقد توافر فى هذه الجريمة كذلك الاتفـــــاق الجنائى بين الفاعلين ، بيد أن بعض الفقهاء يرون أن عثمان بن عفان كان صلب العود ، ثابت الرأى فى غير ما موضع وكان من الافضل أن يتنازل عن الخلافة لغيره ما دامت القبائل تضافرت ضده من كـــل جانب ولا ســـيما أن الثوار دخلوا عليه اكثر من مرة لمفاوضـــته فى هذا الشأن فأبى أن يخضع لآرائهم ، ورفض التنازل فى كبرياء ، على أن هذا لا يعفى الجناة من القصاص عملا بقولة تعالى : « كتب عليكم

القصاص فى القتلى » وجاء فى نهاية المحتاج « من جرح رجلا عمدا فلم يزل ذا فراش حتى مات فعليه القصاص ولواندملت جراحته واستمر محموما حتى هلك فيجب القود ان قال طبيبان عدلان أنها من الجرح فلا غرو أن ينتحل بعض الزعماء المشهورين مثل طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام من مقتل عثمان وعدم المطالبة بدمه والقصاص من قاتليه سببا فى مهاجمة على بن ابى طالب

واجتمع فى موسم الحج عام ٣٩ هـ نفر من الخوارج فى مكة هم عبد الرحمن بن ملجم المرادى ، والحاج ابن عبد الله التميمى الصريمى ، وعمرو بن بكر التميمى ، واتفقوا على أن الرؤساء الثلاثة على ومعاوية وعمرو بن العاص هم سبب البلاء والفرقة واتفقوا على أن يتولى ابن ملجم قتل على ، والحجاج الصريمى قتل معاوية وعمرو بن بكر قتل عمرو بن العاص ، وأن يكون التنفيذ فى الكوفة فى وقت واحد فى ليلة ١٧ رمضان عام ٤٠ هـ

وسافر ابن ملجم الى الكوفة وأخذ يسقى سيفه السم ثم ذهب الى المسجد لتنفيذ المؤامرة ، وباغت عليا وطعنه بالسيف فى مقدمة رأسه طعنة قوية وهو يقول : الحكم لله لا لك يا على ! فصاح على : لا يفوتكم الرجل فقبض الناس عليه . والتف الناس حول الجريح فقال . ان هلكت فاقتلوه كما قتلنى . وان أعش فأنا ولى دمى . اما عفوت . واما اقتصصت . ولكنه توفى بعد يومين من الحادث . وقتل ابن ملجم بعد أن عذب وقطعت أطرافه . ولم يفز الذى ندب لقتل معاوية . أما ماكان من أمر عمرو بن بكر الذى عول على قتل عمرو بن العاص فانه جلس له فى الليلة المذكورة ، فلم يخرج عمرو بن العاص لمرض ألم به . وندب خارجة بن خداقة قاضى مصر ليصلى بالناس وبينما هو فى الصلاة ضربه عمرو بن بكر بالسيف فقتله وهو يظنه عمرو وقال : أردت عمرا وأراد الله خارجة ! ولما وقف الرجل بين يدى عمرو بكى فقيل له : أجزعا من الموت مع هذا الاقدام ؟ فقال : لا والله ! ولكن غما أن يفوز صاحباى بقتل على ومعاوية . ولا افوز انابقتل عمرو

الفصل الثانى

مؤامرات من العصرين الاموى والعباسى

قبل أن نتعرض للمؤامرات فى العصرين الأموى والعباسى نتحدث عن مؤامرة كان لها أكبر الاثر فى قيام الدولة الاموية ، واعنى بها مؤامرة التحكيم اذ أرسل على بن أبى طالب الاشعث ابن قيس الى معاويه ليستخبر أمره ويعرف رأيه ، فقال له معاوية بن ابى سفيان : « نرجع نحن وأنتم الى ما أمر الله به فى كتابه ، تبعثون منكم رجلا ترضونه ، ونبعث منا رجلا ، ثم نأخذ عليهما أن يعملا بما فى كتاب الله » .

وعاد الأشعث الى على بن أبى طالب فأحاطه علما بوجهة نظر معاوية ، فقال الناس : رضينا وقبلنا ونتيجة لذلك اختار أهل الشام عمرو بن العاص واختار أهل العراق أبا موسى الأشعرى فقال على بن ابى طالب : « قد عصيتمونى فى أول الامر. فلا تعصونى الآن » وأبدى لقومه وعشيرته خشيته من تنصيب موسى الأشعرى مندوبا عنهم فى التحكيم لانه كان يخذل الناس عنه ، بيد أنهم أصروا على موقفهم وأبوا الا اياه ، فأذعن على مضض لرأيهم .

ولم يلبث أن اجتمع عمرو بن العاص ، وأبو موسى الاشعرى « بدومة الجندل » فى شهر صفر عام ٣٧ هـ حيث كتبا عقد التحكيم ، ويؤخذ من هذا العقد أنهما اتفقا على النزول عند حكم الله عز وجل وكتابه ولا يجمع بينهما غيره ، وأن كتاب الله من فاتحته الى خاتمته بينهما يحييان ما أحيا ويميتان ما أمات ، وقررا الامان على أنفسهما واهلهما وشتى طوائف المسلمين ، وأن الامن والاستقامة ووضع السلاح بينهم أينما ساروا على انفسهم وأهلهم وأموالهم ، وشاهدهم وغائبهم ، وبعد ذلك تجلى دهاء عمرو فى

اجلى صوره وأوضح مظاهره . اذا استدرج عمرو ابا موسى حتى خلع عليا على حين تبت عمرو معاوية بن أبى سفيان .

ويروى الطبرى فى تاريخه قصة هذه المؤامرة السياسيه التى دبرها عمرو بن العاص لتثبيت أقدام معاويه فيقول : قال عمرو يا أبا موسى ـ بعد أن عدد أسماء كثيرين من الصحابة لتولية الخلافة ـ ما رايك ؟ قال : رأيي أن نخلع هدين الرجلين، ونجعل الامر شورى بين المسلمين فيختاروا لانفسهم من آحبوا فقال له عمرو ان الرأى ما رأيت . وقال : يا ابا موسى أعلمهم بأن رأينا قد اجتمع واتفق فتكلم أبو موسى : ان رأيي ورأى عمرو قد اتفقا على أمر نرجو أن يصلح الله عز وجل به أمر هذه الأمة ، فقال عمرو : صدق ، تقدم يا أبا موسى فتكلم ! فتقدم أبوموسى ثم قال: ايها الناس ! انا قد نظرنا فى أمر هذه الأمة فلم نر أصلح لأمرها، ولم شعثها ، من أمر قد اجتمع رأيى ورأيه عليه ، وهو ان نخلع عليا ومعاوية ، فتستقبل هذه الأمة هذا الأمر ، فيولوا منهم من أحبوا عليهم وانى قد خلعت عليا ومعاوية ، فاستقبلوا أمركم ، وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلا. ثم اقبل عمرو بن العاص، فقام مقامه ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال : « ان هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه ، وانا أخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبى معاوية ، فانه ولى عثمان بن عفان رضى الله عنه والمطالب بدمه ، وأحق الناس بمقامه » فتنابذا ، وركب ابو موسى راحلته، ولحق بمكة تم انصرف اهل الشام الى معاوية وسلموا عليه بالخلافة .

ويروى المسعودى فى مروج الذهب قصة هذه المؤامرة بطريقة أخرى تختلف عن رواية الطبرى بيد أنها تتفق معها فى مضمونها وهو خداع عمرو بن العاص لابى موسى الاشعرى ، وخلع على بن أبى طالب ، وتثبيت معاوية بن أبى سفيان ، فهو يقول انه لم يكن بينهما غير صحيفة مكتوبة تعاهدا فيها على خلع على ومعاوية وأن يولى المسلمون من أحبوا ، ولم يخطب احد منهما فى الناس .

وسواء أكانت رواية الطبرى أم المسعودى هى الصحيحة ؛

بان المؤامرة قد تمت وتمكن عمرو بن العاص من تنفيذها ، وعندى أنه لم يكن سوى آلة منفذة لها أما الرأس المفكر ، فكان معاوية ابن أبى سفيان ، وهذا واضح جلي من اجتماعه بعمرو قبل التحكيم ، بل ان معاوية قال لعمرو قبل التحكيم « يا أبا عبد الله ! ان اهل العراق قد آكرهوا عليا على ابى موسى ، وأنا واهل الشام راضون بك ، وقد ضم اليك رجل طويل اللسان ، قصير الرأى فأخذه مأخذ الجد ، ولا تلقه برأيه كله » .

ويعزو بعض المؤرخين نجاح هذه المؤامرة الى دهاء عمرو ابن العاص الذى كان خير مدافع عن موكله والى طيبة قلب أبى موسى الأشعرى ، بل سذاجته وقلة حيلته . والغريب أن الطبرى يروى رواية فحواها أن عبدالله بن العباس قال لأبى موسى الأشعرى حين أراد عمرو بن العاص أن يتقدمه : ويحك انى والله لأظن عمرا قد خدعك ، ان كنتما قد اتفقتما على أمر ، فقدمه ليتكلم بذلك الامر قبلك ، ثم تكلم انت بعده ، فان عمرا رجل غادر ، ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضا فيما بينك وبينه ، فاذا قمت فى الناس خالفك .

واذا صحت هذه الرواية التى كانت بمثابة التحذير لأبى موسى الأشعرى ، فانها تدلنا على أنه كان خاليا من دهاء رجل السياسة ، وتبصره ، وبعد نظره وثاقب فكره .

وساعدت عوامل كثيرة على تثبيت ملك معاوية ، ومن ابرزها نجاح هذه المؤامرة واضطراب حال جيش على بن أبى طالب ، والتفاف جند معاوية حوله وتأييده ، ونصرته .

ولم تكن هذه المؤامرة الا بداية لمؤامرات أخرى فقد غضب لفيف كبير من اهل العراق لفكرة التحكيم وطلبوا من على أن يرجع عن خطته ، وان يشعلها حربا عوانا ضد معاوية ، وأوفدوا اليه رجلين من زعمائهم هما زرعة بن البرج الطائى ، وحرقوص بن زهير السعدى ، فطلبا منه الاذعان لرايهم أو الخروج على طاعته وشن الحرب عليه ، اذا أصر على قبول التحكيم وسمى هذا الفريق بالخوارج .

وقد اجتمع هؤلاء الخوارج واختاروا عبدالله بن وهب

الراس زعيما عليهم . واستقر امرهم على مغادرة الكوفة واعلان الثورة ، انكارا لهذه « البدعة المضللة والأحكام الجائرة » واخذوا يقتلون كل من لم يشاطرهم عقيدتهم ويعترف بخليفتهم ويلعن عثمان وعليا ، واجتمع الخوارج من اهل البصرة والكوفة وقصدوا النهروان فسار على اليهم ، فلقيهم على النهروان وأبادهم فكأنما قيل لهم : موتوا فماتوا على حد تعبير ابن طباطبا فى « الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية » ولكن هزيمة على للخوارج فى النهروان لم تقض على كل فئاتهم فقد ظلوا شوكة فى جانب الأمة الاسلامية التى أصبحت عند تولى معاوية بن أبى سفيان الحكم وقيام الدولة الاموية ، تتنازعها ثلاث طوائف ، طائفة شيعة بنى أمية من أهل الشام وغيرها من الامصار ، وشيعة على بن أبى طالب ، وطائفة الخوارج وهى تعادى الفريقين السابقين وتستحل دماءهما .

وقد شرع الخوارج يدبرون المؤامرات السياسية لتولى الحكم وتفاقم خطرهم فى الأمة الاسلامية بيد ان زياد بن أبيه لما تولى البصرة عام ٤٥ هـ خطب خطبته المشهورة « بالبتراء » واشتد فى معاملة الخوارج حتى عجم عودهم .

ولكن الدولة الأموية ظلت مهددة بثورات الخوارج فترة طويلة . شهد هذا العصر كثير من زعمائهم نذكر منهم المختار الثقفى ، ونافع بن الأزرق وصالح بن مسرح التميمى . وشبيب بن يزيد نعيم الشيبانى . ونجده بن عامر ، وزياد بن الاصفر وغيرهم .

مصرع الحسين بن على : —

ولا يمكن لمؤرخ العصر الاموى والمؤامرات السياسية التى دبرت فيه أن يغفل قصة مصرع الحسين بن على التى تعد من أشد الجرائم قسوة فى التاريخ الاسلامى . اذ أرسل يزيد بن معاوية الى الحسين بن على ، وكان وقتذاك فى المدينة ، ليدخل مع من دخل فى مبايعته ، فامتنع الحسين وابى أن يذعن لرأى يزيد وخرج الى مكة وما ان وصل اليها حتى بلغته الرسائل من العراق ومبايعته له دون يزيد بن معاوية وهنا ازدادت حماسته ، وعول

على الصمود حتى النهاية ، بيد أن بعض خلصائه نصحوه بعدم تصديق أمر هذه الرسائل . وانقسم اتباعه الى فريقين ، فريق يؤيد رسائل أهل العراق وينصحه بالخروج الى العراق ، وفريق لا يؤيدها ، ويعدها خدعة من الخدعات السياسية ولونا من التآمر ومن هذا الفريق عبد الله بن العباس وابن عمر .

ولكن الحسين بن على لم يوافق هذا الفريق الأخير وانصاع لرأى الفريق الأول ، اذ ملئوا آذانه بأنه سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن أكفأ المسلمين علما ، وأكثرهم دراية بشئون الشرع الشريف .

واراد الحسين ان يستوتق من تأييد زعماء العراق الذين كتبوا اليه ، فأرسل ابن عمه مسلم بن عقيل ، فأخذ بيعته له منهم ، وبعث اليه أن يحضر للاقاتهم .

خرج الحسين من مكة بعد ما بلغه كتاب مسلم بن عقيل ، وما أن خرج منها حتى انطلق عبدالله بن عمر فى أثره ليمنعه من الخروج الى هناك خشية الهلاك وحتى لا يذهب ضحية مؤامرة خبيثة لقتله ، أو التفرد به فى هذه البقاع حتى يسلمه الجند للموت ، وادركه عبدالله بن عمر بعد ميلين من مكة وقال له : ارجع ، فأبى الحسين فقال : « انى محدثك حديثا ، ان جبريل أتى النبى صلى الله عليه وسلم فخيره بين الدنيا والآخرة ، فاختار الآخرة ، وانك بضعة منهم ، والله لا يليها أحد منكم ، فقال الحسين « ان معى حملين من كتب العراق يبايعنى أصحابها بالخلافة » فقال عبدالله بن عمر : « ماتصنع بقوم قتلوا أباك وخذلوا أخاك؟ »

وأبى الحسين الا الانطلاق الى العراق فبكى عبد الله بن عمر وقال والدموع تنهمر من عينيه والحشرجة تبدو فى صوته : « أستودعك الله من قتيل » ورجع وهو يقول « لقد غلبنا الحسين بالخروج ، ولعمرى لقد كان له فى أبيه وأخيه عبرة » .

وهكذا لم يلق الحسين بالا لنصيحة عبدالله بن عمر ، كما ذهب نصح عبدالله بن عباس دبر اذنيه ، اذ قال له وهو يعظه : « لا تخرج الى أهل العراق » فلما لم يصغ الى وعظه قال : « والله انى لأظنك تقتل بين نسائك وابنائك وبناتك كما قتل

عثمان بن عفان » كما قال له كذلك : « اتسير الى قوم قتلوا اميرهم ، وضبطوا بلادهم ، ونفوا عدوهم ؟ فان كانوا قد فعلوا ذلك فسر اليهم وان كانوا دعوك اليهم ــ وأمير عليهم قاهر لهم ، عماله تجبى بلادهم ــ فانهم انما دعوك للحرب والقتال ، ولا آمن عليك أن يغروك ويكذبوك ويخالفوك ، ويخذلوك ، وأن يستنفروا اليك فيكونوا أشد الناس عليك » فقال له الحسين : « انى أستخير الله وأنظر » ولم يلتفت الى نصحه ، ولم يأبه كذلك لقول الفرزدق الشاعر عندما لقيه « قلوب الناس معك وسيوفهم مــــع بنى أميه والقضاء ينزل من السماء » .

ولما علم يزيد بن معاوية بخروج الحسين بن على أرسل عبيد الله بن زياد لمحاربته فخرج اليه مسلم بن عقيل قبل وصول الحسين ، بيد أنه قتل فى احدى المعارك ، وفى هذه الاثناء وصل الحسين الى الكوفة وهناك قابله الحر بن يزيد التميمى وقال له : ارجع فانى لم أدع لك خلفى خيرا أرجوه » فهم الحسين بالرجوع ولكن أخا مسلم بن عقيل حرضه على متابعة السير حتى يأخذ بثأرهما .

وخطب الحسين فى الناس فقال : « أيها الناس ! انكم ان تتقوا الله وتعرفوا الحق لأهله يكن أرضى لله ونحن أهل البيت أولى بولاية هذا الامر من هؤلاء المدعين السائرين فيكم بالجور والعدوان ، فان أنتم كرهتمونا وجهلتم حقنا ، وكان رأيكم غير ما اتتنى به كتبكم انصرفت عنكم » .

وعندئذ نهض الحر بن يزيد التميمى وعارضه قائلا : « انا والله ما ندرى ما هـذه الكتب والرسل التى تذكر » ، فأخرج الحسين مجموعة من الرسائل الواردة اليه من أهل العراق ، فلما القى الحر عليها بصره قال : انا لسنا من هـؤلاء الذين كتبوا اليك ، وقد أمرنا اذا نحن لقيناك ألا نفارقك حتى نقدم بك على عبيد الله بن زياد .

ومنع الحر بن يزيد التميمى أصحاب الحسين من ركوب مطاياهم فقال له الحسين : ثكلتك أمك ما تريد ؟ فقال الحر : لو كان غيرك قالها ما تركت ذكر أمه ، والله مالى الى ذكر أمك من سبيل الا بأحسن ما نقدر عليه .

ونشب القتال بين الفريقين فى شهر المحرم عام ٦١ هـ فى كربلاء وبينما هم يتقاتلون دوى صوت المؤذن للصلاة فأستأذن الحسين اعداءه فى قيام الهدنة بين الطرفين ، حتى يؤدى القوم الصلاة فقبل خصومه وقف القتال ورفعوا راية الأمان ، ولم يكد الحسين ينتهى من صلاته حتى انقض عليه خصومه انقضاضة واحدة وقتل الحسين ، وقتل معه اثنان وسبعون رجلا منهم ثلاثة وعشرون من أهل بيته وسلب سراويله ، ونهب نقله ومتاعه وما على النساء وفى ذلك يقول ابن طباطبا فى كتابه الفخرى فى الآداب السلطانية : « تم قتل الحسين عليه السلام قتلة شنيعة ، ولقد ظهر منه عليه السلام من الصبر ، والاحتساب والشجاعة والورع ، والخبرة التامة بآداب الحرب والبلاغة ، ومن أهله وأصحابه رضى الله عنهم من النصر له والمواساة بالنفس ، وكراهية الحياة من بعده ، والمقاتلة بين يديه عن بصيرة ما لم يشاهد مثله . ووقع النهب والسلب فى عسكره وذراريه عليهم السلام ثم حمل النساء ورأسه الى يزيد بن معاوية بدمشق فرد نساءه الى المدينة » .

هذا وقد وجد بجسمه عليه السلام ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وأربعون ضربة ، وقد انتدب عشرة من الفرسان فداسوا بخيولهم على جثته ، ثم حزوا رأسه وطافوا بها على خشبة فى انحاء الكوفه ثم ارسل أهل بيته من النساء والصبيان الى يزيد ابن معاوية كما أرسل اليه رأس الحسين فأمر بصلبها فى الكوفة ثلاثة ايام متتابعة وعندما دخلت السيدة زينب رضى الله عنها على يزيد بن معاوية وجدته يعبث فى رأس الحسين بعصاه وهو ينشد بعض الابيات التى تظهر حقده وتبين ضغينته .

وعندما قتل الحسين صعد ابن زياد المنبر وخطب فى الناس قائلا : « الحمد لله الذى أظهر الحق وأهله ، ونصر أمير المؤمنين يزيد وحزبه ، وقتل الكذاب ابن الكذاب وشيعته » فما أن سمع عبد الله ابن عفيف الازدى هذا القذف العلنى حتى قام على المنبر قائلا : « يا عدو الله ، ان الكذاب أنت وأبوك والذى ولاك وأبوه ، تقتل أولاد النبيين ، وتقوم على المنبر مقام الصديقين » .

والباحث فى مصرع الحسين يجد أنه قد قتل نتيجة لخداع أهل العراق ، وأنهم استقدموه لديهم لتنفيذ خطتهم ، والانتقام

منه . كما أن وقت تنفيذ القتل ، كان عقب الهدنة مباشرة وقد تكون الحرب خدعة ولكن الطريقة التى نفذ بها قتل الحسين كانت من أبشع الجرائم التى عرفها التاريخ ، وكانت انتهاكا لحقوق الانسان ، واهدارا لكرامته فى الحياة والموت .

ويرى السير وليم ميور Willriam muir ومن لف لفه من المؤرخين أن الحسين بانسياقه الى تدبير الخيانة سعيا وراء العرش قد ارتكب جريمة هددت كيان المجتمع الاسلامى وتطلبت من أولى الأمر فى الدولة الأموية التعجيل بقمعها ، ولكنى أرى أن هذا التنفيذ كان مخالفا لكل ما جاءت به الشرائع بل كان فى ذاته الجريمة الكبرى فقد استدرج الحسين الى موضع تنفيذ الجريمة ، ثم قتل غيله فى كربلاء .

وهذه الجريمة تستحق القصاص فى الشريعة الاسلامية فالله جل جلاله يقول فى كتابه العزيز « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين ، والأذن بالاذن ، والسن بالسن ، والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ، ومن لم يحكم بما أنزل الله ، فأولئك هم الظالمون » كما قال فى سورة البقرة آية ١٩٤

« فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم »

ولم يشهد التاريخ الاسلامى جريمة أفظع من قتل الحسين . بل لم يشهد حاكما ظالما يعلق جثه خصمه فى أحد الميادين ثلاثه أيام متتابعة . بل يعلق رأس خصمه فى أحد الميادين ثلاثة أيام متتابعة بل يعلق رأس خصمه بعد أن يفصلها عن جسده هذه الفترة من الايام بعد أن ينهش بعصاه هذه الرأس امام أقرب المقربات اليه وهى السيدة زينب عليها السلام .

ولو أننا أمسكنا خيط الجريمة من أوله لوجدناه يقوم على خطة التآمر والانتقام ، التى تنبه لها بعض خلصاء الحسين وأصفيائه فحاولوا صرفه عن الذهاب الى العراق ولكنه بحسن نيته واخلاص طويته حسب أن زعماء العراق لن يخذلوه ! وخذله زعماء العراق وكانت مؤامرة وكانت لها قصة !!

المؤامرات في العصر العباسي :

ولم تنم الفتن في مرقدها طيلة حكم الأمويين بل ظلت الدسائس والمؤامرات تدبر في الظلام وتعمل على تقويض دولتهم، وبدأت الدعوة السرية في أوائل القرن الثاني للهجرة من الحميمية تدعو للعباسيين وذلك في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز ، ووجه محمد بن على العباسى الدعاة الى الولايات الاسلامية فوجه بعضهم الى العراق ووجه بعضهم الى خراسان ووجه الآخرين الى شتى أطراف الدولة الاسلاميه وهناك شرع هؤلاء الدعاة ينشرون الدعوة العباسية فى الخفاء وظاهر أمرهم التجارة أو الحج الى مكة واختار ابو عكرمة السراج من الدعاة العباسيين داعيا ، وشمر الجميع عن ساعد الجد فى بث الدعوة العباسية ، ولم يبالوا بما لا قوة من ضرب أو صلب أو قتل أو تشريد وعندما مات الامام محمد بن على العباسى عام ١٢٥ هـ (٧٤٢ م) جاء بعده ابنه ابراهيم . فوضع على عاتقه النهوض بهذه المهمة ، واستعان بأبى مسلم الخراسانى الذى كان له اليد الطولى فى قيام الدولة العباسية وقد ظل امر الدعوة العباسية مكتوما بيد أنه أخذ ينتشر فى الخفاء حتى ضبط فى حوزة ابراهيم الامام كتاب الى ابى مسلم الخراسانى يأمره فيه بقتل كل من يتكلم العربية بخراسان فأدى هذا الحادث الى القبض على ابراهيم الامام ووضعه فى غياهب سجون حران، وقتله ، فتولى شئون الدعوة العباسية أخوه أبو العباس عبد الله ابن محمد وعاونه في تنظيمها أبو سلمة الخلال .

واستطاع العباسيون على أثر ذلك هزيمة الأمويين فى الكوفة، وخفق العلم الاسود شعار العباسيين فوق حصون دمشق عام ١٣٢ هـ — ٧٥٠ م ، واقتفى العباسيون آثار مروان بن محمد آخر الخلفاء الامويين حتى لحقوا به فى قرية تسمى « بوصير » من أعمال الفيوم بالوجه القبلى وهناك قتل مروان ، واحتز راسه ، وارسل الى السفاح فى الكوفة فسجد شكرا لله على اخذه الثأر لأخيه ابراهيم الامام وانتهى سلطان بنى أمية ، ونجحت الدولة العباسية فى قيام الدولة الجديدة تلك الدعوة التى لم تكن سوى مؤامرة من المؤامرات التى دبرت فى الخفاء ثم شاءت لها الظروف ان تظهر وأن تمتد وأن تجد لها أعوانا وأنصارا ، يؤمنون بها أشد الايمان ، ويدافعون عنها اصدق الدفاع حتى تم النصر

للدعوة العباسيه وتاسست دولة العباسيين على يد أبى العباس السفاح ·

مؤامرة البرامكة :

ولم تخل هذه الدولة التى دامت خمسة قرون ــ بدات من عام ١٣٢ هـ وهو العام الذى تولى فيه أبو العباس السفاح الخلافة ودالت عام ٦٥٦ هـ حين سقطت بغداد فى أيدى التتار ــ من مؤامرات شتى دبرت فى الظلام ، ولعل أبرز مؤامرة المت بهـا هى مؤامرة البرامكة ، وهى مؤامرة اشترك فى تدبيرها الخليفة هارون الرشيد ليسترد سلطانه المغتصب ، ويدعم نفوذه ، ويقوى مركزه ، فالعرش فى هذه المؤامرة هو الجانى وليس المجنى عليه كما هى العادة فى اغلب المؤامرات العباسية .

اما قصة هذه المؤامرة ، فتتلخص فى أن الرشيد كان يستعين بالبرامكة فى تدبير أمور ملكه وكانت أسرة البرامكة مجوسية تدين بديانة الفرس القديمه فلما ظهر الاسلام ، اعتنقته ، وظهر منها خالد بن برمك الذى تقلد الوزارة فى عهد السفاح والمنصور ، ويحيى بن خالد البرمكى الذى كان كاتبا لهارون الرشيد وكان صفيه وجليسه يرجع اليه فى شتى أمور الحكم ، ويعتمد عليه فى مختلف شئون الرعية وقد قام يحيى كما يقول ابن طباطبا : « باعباء الدولة أتم نهوض وسد الثغور ، وتدارك الخلل وجبى الأموال وعمر الأطراف وأظهر رونق الخلافة ، وتصدى لمهمات المملكة » فأثار حوله الحقد والحسد لما بلغه من منزلة رفيعة ، ومكانة مرموقة عند هارون الرشيد ·

كما استعان الرشيد بجعفر بن يحيى البرمكى وكان يأنس اليه لسهولة أخلاقه ويؤثره على أخيه الفضل الذى اشتهر بغلظة الطباع ، حتى قيل أن الرشيد قال يوما ليحيى : « يا أبى ما بال الناس يسمون الفضل الوزير الصغير، ولايسمون جعفرا بذلك؟ » فقال يحيى : « لأن الفضل يخلفنى ، فقال : فضم الى جعفر اعمالا كاعمال الفضل، فقال يحيى : ان خدمتك ومنادمتك يشغلانه عن ذلك ، فجعل اليه أمر دار الرشيد ، فسمى بالوزير الصغير ايضا . ونقل الرشيد ديوان الخاتم من الفضل الى جعفر .

وهكذا كانت أسرة البرامكة تتغلغل فى خدمة عرش هارون الرشيد . ومن هنا ثارت حولها الفتن والاشاعات ، ووجد عمال السوء مجالا فسيحا لبث وشاياتهم فى أذن هارون الرشيد فنقم عليهم أشد النقمة ، وانتهز الفرصة المواتية للتخلص منهم ، وسبق ذلك ان اصدر أوامره الى غلمانه بالاعراض عنهم والاستهتار بهم اذا دخلوا قصره ، ومن ذلك ما رواه الطبرى « دخل يحيى بن خالد على الرشيد ، فقام الغلمان اليه ، فقال الرشيد لمسرور الخادم : مر الغلمان ألا يقوموا ليحيى اذا دخل الدار قال : فدخل فلم يقم اليه أحد . فاربد لونه ، وكان الغلمان والحجاب بعد اذا رأوه أعرضوا عنه فكان ربما استسقى الشربة من الماء أو غيره فلا يسقونه . وبالحرى ان سقوه أن يكون ذلك بعد أن يدعو بها مرارا » .

ومن الاسباب التى ذكرها أعداء البرامكة لهارون الرشيد للانتقام من هذه الأسرة . واشراكه فى تدبير مؤامرة للتخلص منهم اتهامهم بالزندقة والميل الى دين المجوس ، وعبادة النار ، اذ احتالوا وقالوا للمسلمين : ينبغى أن تجمر المساجد كلها ، وان تكون فى كل مسجد مجمرة ، يوضع عليها الند والطيب ، وكانوا قد امروا بوضع مجمرة فى جوف الكعبة ، فأول الاعداء ذلك بأنهم رموا الى أن تكون الكعبة بيت النار ، وحدث فى هذا الوقت ان أذن الرشيد لوزيره جعفر بالزواج من أخته العباسة حتى تحضر مجلسه لكلفه بها ، واشترط عليه أن يكون الزواج دون الخلوة ، بيد أن جعفرا هام حبا بالعباسة وعاشرها حتى أنجب منها مما أثار غضب الرشيد عليه لمخالفته لامره . كما حدث أن أطلق جعفر سراح يحيى بن عبد الله من زعماء الشيعة دون اذن الرشيد وكان الرشيد على حد تعبير ابن خلدون « يطلب اليسير من المال فلا يصل اليه فغلبوه على أمره ، وشاركوه فى سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف فى أمور ملكه » وكانت زبيدة أم المؤمنين تكره البرامكة ظنا منها أن يحيى هو الذى دفع بولاية العهد للمأمون دون الامين .

لهذه الأسباب ولغيرها عول الرشيد على التخلص من أسرة البرامكة ، وفى مستهل عام ١٨٧ هـ (٨٠٣م) أصدر الرشيد أوامره باعدام جعفر والقبض على أبيه واخوته ، ويروى الجهشيارى فى

كتابه « الوزراء والكتاب » بقية المأساة فيقول « ولما عاد الرشيد من الحج سار من الحيرة الى الانبار فى السفن وركب جعفر بن يحيى الى الصيد ، وجعل يشرب تارة ، ويلهو أخرى ، وتحف الرشيد وهداياه تأتيه ، وعنده بختيشوع الطبيب ، وأبو ذكار الاعمى يغنيه ، فلما ظل المساء دعا الرشيد مسرورا الخادم وكان مبغضا لجعفر وقال : اذهب فجئنى برأس جعفر ولاتراجعنى فوافاه مسرور بغير اذن ، وهجم عليه ، وأبو ذكار يغنيه :

فلا تبعد فكل فتى سيأتى عليه الموت يطرق أو ينادى

فلما دخل مسرور قال جعفر بن يحيى البرمكي : لقد سررتنى بمجيئك ، وسؤتنى بدخولك على بغير اذن ، فقال : الذى جئت اليه أعظم ، أجب أمير المؤمنين الى ما يريد بك فوقع على رجليه فقبلهما وقال له : عاود أمير المؤمنين ، فان الشراب قد حمله على ذلك ، وقال : دعني أدخل داري ، فأوصى فقال : الدخول لا سبيل اليه ، وأما الوصية فأوص بما بدالك • فأوصى ، ثم حمله الى منزل الرشيد ، وعدل به الى قبة ، وضرب عنقه ، وأتى برأسه على ترس الى الرشيد ، وببدنه في نطع ، ووجه الرشيد فقبض على ابيه واخوته ، وأصحابه ، بالرقة ــ اسم مكان ــ واستأصل شأفتهم» •

وهكذا تخلص الرشيد من هذه الاسرة ، والمعروف أنه صادر جميع أموالها من منقولة وثابتة • وتنشاء الظروف أن تدبر فى ذلك الوقت مؤامرة لنزع ملك الرشيد ، ويتهم البرامكة بالاشتراك فيها، فيزداد سخط الرشيد عليهم ، فيموت الوزير يحيى البرمكى فى السجن هما وغما ويتبعه الفضل بعد ذلك بثلاثة أعوام ١٩٣ هـ •

ونكبة البرامكة من أشهر المؤامرات التاريخية التى دبرت في هذه العصور ، وكان للعرش يد طولى فى تنفيذها والواقع أن كراهية هذه الاسرة لم تكن سوى كراهية العرب لهذا العنصر الدخيل الذى تغلغل في الحكم العربى وقد ظهرت بوادر هذا الامتعاض منذ عهد المنصور ، والمهدى ، والهادى •

قتل ابن المقفع الكاتب الفارسى :

ويكفى أن نذكر تلك المؤامرة التى دبرها أعداء الكاتب الفارسى ابن المقفع مترجم كليلة ودمنة وغيرها من روائع الادب الفارس والهندى لقتله . فقد اتهمه أعداؤه لدى المنصور بالزندقة والمروق عن الدين ، والمرور ببيت النار ، بيت المجوس ؛ كما اتهمه أعداؤه بالتحريف فى كتاب الامان الذى كتبه لعبد الله بن على مع أنه احترس من كل تأويل يجوز أن يقع عليه ، وكان عبد الله بن على قد خرج على المنصور ، ثم استقر الرأى بينهما على الامان ، ويقال ان ابن المقفع شدد فى هذا الكتاب الامان . وغلظ الايمان على أمير المؤمنين . فطلق نساءه ، واعتق عبيده ، وأحل الناس من بيعته ان نكث عهده لعمه عبد الله أو غدر به ، فأحفظ ذلك المنصور وأسرها فى نفسه لابن المقفع .

وكان سفيان بن معاوية من أشد الناس كراهية لابن المقفع ، ورأس هذه المؤامرة المدبرة لقتله والتخلص منه ، وكان ابن المقفع ، يكره سفيان كذلك ويسخر منه سخرية شديدة ، وكان سفيان يضطغن عليه لاشياء أخرى كثيرة منها أنه كان يهزأ به ويسأله عن الشىء بعد الشىء فاذا أجاب قال له : أخطأت . ويضحك ، فلما كثر ذلك على سفيان ، غضب ، فافترى عليه ، فقال له ابن المقفع : يابن المغتلمة !! والله ما اكتفت أمك برجال أهل العراق حتى تعدتهم لأهل الشام !

وساعد أبو أيوب المورياني أحد علماء ذلك العصر سفيان بن معاويه فى تنفيذ خطته فمضى يسر فى أذن المنصور بوجوب التخلص من ابن المقفع . وكان أبو أيوب يحقد حقدا شديدا على مكانة ابن المقفع من المنصور ، وتألم أشد الألم حينما قال له أبوجعفر المنصور ذات يوم وقد أنكر عليه شيئا : كأنك تحسب أنى لا أعرف موضع أكتب الخلق وهو ابن المقفع مولاى ، فلم يزل أبو أيوب خائفا منه، يسعى ويدب فى أمره حتى قتله .

لهذه الأسباب ولغيرها ، نقم المنصور على ابن المقفع ، وأصدر أمره باعدامه ، واقتيد ابن المقفع الى مقصورة كبيرة . ولما رآه سفيان بن معاوية قال له : وقعت والله ! فأجاب ابن المقفع :

انشدك الله ! فقال سفيان . أمي مغتلمة ، كما ذكرت ، ان لم أقتلك قتلة لم يقتل بها أحد قبلك ، فأجاب ابن المقفع : انك لتقتلني ، فتقتل بقتلي ألف نفس ، ولو قتل ألف مثلك ما وفوا بواحد ثم أنشد قائلا :

اذا ما مات مثلي مات شخص يموت بموته خلق كثير

وانت تموت وحدك ليس يدري بموتك لا الصغير ولا الكبير

وهكذا تمت هذه المؤامرة التي دبرت للتخلص من ابن المقفع، وعندي أن هذه المؤامرة لم تكن سوى مؤامرة سياسية دبرت ضد سلطان الفرس ، اذ بدأ نفوذهم يزداد في العصر العباسي بشكل واضح ملموس في شتى ميادين السياسة والادب والعلم ، مما سبب الضيق للعرب الذين كانوا يريدون أن تخلص لهم أمور الدولة جميعا ، ولا يبدو هناك أي أثر للنفوذ الاجنبي الدخيل .

ولقد كانت الزندقة تكأة يتخذها الخلفاء للتخلص ممن لا يرتاحون اليه ، فاتهم بالزندقة أناس كثيرون منهم بشار بن برد، ومطيع ابن اياس ، وحماد عجرد ، وصالح بن عبد القدوس وغيرهم .

وأمعن المهدي في قتل الملحدين والمداهنين عن الدين لظهورهم في أيامه واعلانهم باعتقاداتهم في خلافته لما انتشر من كتب ماني وابن ريصان ومرقيون وغيرها من كتب الفرس . وكان بعض هؤلاء الملحدين ملحدين حقا ، وأما الآخرون فأخذوا بالشبهات أو الزور . اذ اتخذ بعض الناس الزندقة ذريعة للانتقام من خصومهم سواء أكانوا من الشعراء والعلماء أم الولاة والامراء .

الصراع بين العرب والموالي :

وقد بدا الصراع بين العرب والموالي منذ صدر الدوله العباسية اذ أنه لما جاء الاسلام تكونت للعرب أمة ، وكانت فيها خصائص الامة من اتحاد لغة ودين وميول وكانت هناك حكومة على رأسها حاكم واستطاعت الانتصار على أضخم أمتين في ذلك العصر وهما الفرس والروم . ولكن لم يلبث أن تغلغل العنصر الفارسي في الامة العربية ، ورأينا بعد ذلك نصر بن سيار ينبه العرب الى أن

الفرس تريد أن تهلك العرب فأولى أن يتحد العرب كما اتحد الفرس . بل رأينا الامر يصل الى أكثر من ذلك فقد اتفقت قبائل العرب من ربيعة ومضر واليمن على وضع الحرب والاجتماع على مقاتلة أبى مسلم الخرساني ولكن أبا مسلم الخراساني وقومه استطاعوا الانتصار باشعال نار الفتنة والفرقة بين العرب من جديد .

فلما جاءت الدولة العباسية ازداد نفوذ الموالى ، وامتلأت قصور الخلفاء بهم . واستخدمهم الخلفاء فى أعمال شتى وقصرت المراكز الكبيرة كالوزارة على الفرس ، وتفشت التقاليد والعادات الفارسية فى الدولة كاحياء يوم النيروز ، ولبس القلنسوة ، وظهر كتاب أدباء فرس ارتفع صيتهم وعلا ذكرهم عن الادباء العرب .

حينئذ وجد العرب أن الخطر مستطير ، وأن الامر لا يسكت عليه ، وساعدت الظروف على تنفيذ هذه المؤامرة .

مؤامرات الحرس التركى في الدولة العباسية :

وهكذا ظلت المؤامرات سلاحا من أسلحة الحكم فى العصر العباسي سواء أكانت تدبر من الرعية أم الخلفاء . وما أن انتصف القرن الثالث الهجرى حتى تفشت دواعي الانحلال في الدولة العباسية ، وأخذ نفوذ الحرس التركي يتغلغل فى الحكم تغلغلا واضحا ، وكثرت المؤامرات والدسائس فى القصر وحوله ، وبدأ الخلفاء يسقطون نتيجة لها خليفة اثر خليفة وعندما تولى المتوكل على الله الخلافة (٢٣٢ ـ ٢٤٧هـ) رأى أن يقدم ابنه المعتز على أخويه المؤيد والمنتصر ، لمحبته لقبيحة أم المعتز واستجابة لتلك الدسائس والوشايات التى دبرت ضد المنتصر والمؤيد ، فغضب المنتصر لهذا القرار ودبر مع الاتراك مؤامرة لاغتيال أبيه . وحاول بعض الاتراك الملتفين حول المنتصر قتل المتوكل غيلة بدمشق ولكنهم أخفقوا فى تنفيذ المؤامرة بفضل بغا الكبير والفتح بن خاقان ، فاتفق « بغا الصغير » مع « باغر التركى » على قتل المتوكل فضربه بالسيف واستقرت الخلافة لابنه المنتصر .

وبعــــد ذلك خلع المستعين بالله وولى المعتز بفضـــــل مؤامرة دبرها الحرس التركى عام ٢٥٢ هـ ، أما الخليفة المقتدر فقد خلع مرتين وغلب على أمره وذبح فى النهاية ، وضاعت فى عهده افريقيا وأوشكت مصر أن تضيع ، واستقل أمراء حمدان بالموصــــــل . واستطاع البيزنطيون أن يشــــنوا غاراتهم المتصلة على الحــــدود المتاخمة . وأصبح الأمر والنهى بيد أمه وكانت تسمى (السيدة) وبلغ من ازدياد نفوذها أنها كانت اذا غضبت هى أو « قهرمانتها » من أحـــــد الوزراء كان مصــــيره العزل من غير شك ، وبلغ من عظم نفــــوذها أن عنيت قهرمانتها « ثومال » صاحبة للمظالم . وأدى تدخــــل النساء فى أمور الدولة الى ضعفها وتأخرها وتدهورها الى الحضيض .

وكان نتيجة لذلك أن دبرت المؤامرات لاغتيال المقتــدر وكان رأس المؤامرة مؤنس الخادم الذى قتله وترك جثته مكشوفة بضعة أيام حتى دفن بالموضع الذى مات فيه وذلك يوم الاربعـــــاء لثلاث بقين من شوال عام ٣٢٠ هـ . وهكذا أودت المؤامرة السياســــــية بكيان هذه الدولة ! .

الفصل الثالث

مؤامرات من العصرين الفاطمى والايوبى

نتناول فى هذا البحث المؤامرات التى دبرت فى العصرين الفاطمى والايوبى ، وقد دبرت الاولى للتخلص من حياة الحاكم بأمر الله الفاطمى ، كما دبرت الثانية لانهاء حياة صلاح الدين الايوبى . ونجحت الاولى بينما فشلت الثانية ، لان الاولى كانت تنبع من بغض الشعب ، وارادة الطبقات المحكومة التى ترسف فى أغلال الظلم ، وتئن تحت أثقال الاستعباد ، أما الثانية فقد فشلت لانها كانت ارادة فردية لا ارادة المجموع ، وكانت تنبع من نفوس مريضة ، وقلوب خاوية . وتصدر عن صدور أعماها الغل ، وأضلها الحقد ، وذهب برشادها ، فمضت تدبر فى الظلام وتنسج خيوط الفتنة ، ولكن القدر كان لها بالمرصاد فباءت بالفشل الذريع ، وكان مصيرها الخذلان المبين .

وقبل أن نستعرض المؤامرة التى دبرت لاغتيال الحاكم بأمر الله ، والصورة التى تمت فيها ، نبحث عن الاسباب التى دعت الى خروجها الى الوجود واستدعت الاتفاق على تنفيذها وضرورة تحقيقها مهما عانى المؤتمرون فى سبيلها من مشكلات وعوائق ومهما كان المصير الذى ينتظرهم محفوفا بالمخاطر والمهالك .

سياسة الفتك والارهاب فى عهد الحاكم بأمر الله :

كان الحاكم بأمر الله مثالا للحاكم المستبد الجبار ، وقد ولى شئون مصر وله من العمر احدى عشرة سنة ونصف فتولى الوصاية عليه مربيه وأستاذه « برجوان » الخادم ولكن لم يلبث أن غضب الحاكم على برجوان والب عليه رجال القصر وذات يوم استدعى الحاكم

بأمر الله : الحسين بن جوهر قائد القواد وعهد اليه بمهمة قتل برجوان واتفق معه ان يطلبه في القصر ذات مساء ، ولما جاء في الموعد المحدد لتنفيذ الجريمة ، استدعى الحاكم برجوان للركوب معه. وانتظره في بستان قصر اللؤلؤة الذى يقع على الخليج وكان معه ريدان حامل المظلة فوافاه برجوان هناك وبعد أن سلم على الحاكم سار معه حتى خرج من باب البستان فوثب ريدان حينذاك على برجوان وطعنه فى عنقه بسكين وانقضت عليه جماعة من أتباع ريدان وأثخنوه ضربا بالخناجر فسقط على الارض يتضرج في بركة من الدماء ، وأخذ المؤتمرون رأسه ، ودفنوه حيث قتل في ربيع الثانى عام ٣٩٠ هـ (ابريل عام ٩٩٩ م)

وهكذا شهدت السنوات الأولى من عهد الحاكم بأمر الله الفاطمى سياسة الفتك وسفك الدماء ، والتخلص من الخصوم بأبشع الذرائع وأدنأ الطرق ، وقد عمت الفوضى في البلاد من جراء مقتل برجوان واضطرب الامن ؛ وساد الشغب ، وخرج ريدان يصيح فى الجماهير الملتفة حول الجثة : (من كان فى الطاعة فلينصرف الى منزله ويبكر الى القصر المعمور) وانصرف الناس منزعجين وفي نفس المساء اتخذ الحاكم أهبته لاصدار الاوامر ، ومصادرة أموال برجوان الطائلة واختفى أصدقاؤه من الميدان .

ولم تمض على هذا الحادث الاليم فترة وجيزة حتى ضرب الحاكم بأمر الله ضربة أخرى لا تقل قسوة ولا عنفا عن الضربة الاولى ،وهى تدبير مؤامرة لقتل « الحسن بن عمار » زعيم قبيلة « كتامة » وأمين الدولة السابق ، وكانت قبيلته أقوى القبائل المغربية وعماد الدولة الفاطمية منذ نشأتها فخاف الحاكم من نفوذه وعصبيته ، ودبر مؤامرة للتخلص منه ، وقمع شوكته . وفى ذات مساء حين انصرافه من القصر ، انقض عليه جماعة من الغلمان الترك كانت قد تربصت للفتك به ، فقتلوه وحملوا رأسه الى الحاكم .

ولم تمض ثلاثة أعوام على مصرع ابن عمار حتى قتل الحاكم وزيره (فهد بن ابراهيم النصرانى) بعد أن قضى فى منصبه ما يقرب من ست سنين ، وعين الحاكم بدلا منه على بن عمر العداس ولكن مصيره لم يكن أحسن من مصير سابقه ؛ فغضب عليه الحاكم

وقتله ، وقتل معه الخادم « ديدان » الصقلبى حامل المظلة ، ثم قتل عددا كبيرا من الغلمان والخاصة ، ونذكر ممن كانوا من ضحاياه القاضى الحسين بن النعمان الذى قتل واحرقت جثته . ومن الأساليب الوحشية التى كان الحاكم يستخدمها فى تعذيب ضحاياه القتل جوعا (فقتل جماعة من الاعيان صبرا) .

وفى عام ٣٩٩ هـ ألقى الحاكم القبض على عدد كبير من الكتاب والخدم فى القصر وأمر بتعذيبهم وقتلهم ، فانقض عليهم رجاله وقطعوا أيديهم وأذرعهم ثم أزهقوا أرواحهم وقتل الفضل بن صالح وكان من خيرة رجال الجيش المحنكين وقواده المدربين . وقطع يد صاحب الشرطة والحسبة « غين » وكان من الخدم الصقالبة الذين تفانوا فى خدمة الحاكم وتنفيذ أوامره .

كما أمر الحاكم بقتل الوزير الحسين بن طاهر الوزان وعبد الرحيم بن أبى السيد الكاتب وأخيه الحسين صاحب الوساطة والسفارة .

وهكذا توالت سياسة الفتك والارهاب فى عهد الحاكم بأمر الله ،وأصبح القتل أو الاغتيال السياسى ، أمرا عاديا يحدث بين يوم وآخر بل بين ساعة وأخرى ، وتطلع الناس الى الخلاص من هذا الظلم الذى يعيشون بين أكنافه وهذا الاستعباد الذى يذوقون كئوسه غداقا . ولكن الحاكم بأمر الله كان يقبض على السلطة بيد من حديد ، ويبعث من عيونه وأنصاره فى كل مكان ويهدد الخارجين عليه والشاقين عصا طاعته بالويل والثبور وعظائم الامور .

تناقض شخصية الحاكم بأمر الله :

وكانت شخصية الحاكم نفسه مزيجا من الابهام والغموض ، والاضطراب والقلق وكانت أخلاقه تجمع بين المتناقضات ، فمن شجاعة واقدام الى جبن واحجام ومن محبة للعلم الى انتقام من العلماء ، ومن ميل الى الاصلاح الى ميل للفساد . وقد لزم ارتداء الصوف سبع سنين وامتنع عن دخول الحمام ، وأقام سنتين يجلس فى ضوء الشموع ليلا ونهارا ثم تاقت نفسه أن يجلس فى الظلمة فجلس فيها مدة . وكتب على المساجد والجوامع سب أبى بكر وعمر

وعثمان وعائشة وطلحة ومعاوية وعمرو بن العاص ، وأمر بقتل الكلاب وبيع الفقاع « وهو شراب يتخذ من الشعير وسمى بذلك لما يرتفع فيه الزبد »ثم نهى عنه ونهى عن النظر الى النجوم وكان ينظر فيها • ونفى المنجمين وكان يرصد النجوم وزحل والمريخ وغيرهما من الكواكب وقيل أنه كان يستمد سياسة سفك الدماء من طوالع هذه النجوم • ومنع الناس من صلاة التراويح عشر سنين ثم أباحها • وقطع الكروم ومنع بيع العنب ، ولم يبق فى ولايته كرم ، وأراق خمسة آلاف جرة من العسل في البحر خوفا من أن يستخدمها الناس فى صناعة النبيذ وحرم أكل الملوخية والسمك وجعل لأهل الذمة علامات يعرفون بها ، وألبس اليهود العمائم السود ، وأمر ألا يركبوا مع المسلمين فى سفينة ، وألا يستخدموا غلاما مسلما ، وألا يركبوا حمار مسلم ، ولم يبق فى ولايته ديرا ولا كنيسة الا وهدمها ونهى سنة اثنتين وأربعمائة عن بيع الرطب . ثم جمع منه شيئا عظيما وأمر باحراقه •

وأولع الحاكم بأمر الله بالليل ؛ فأمر الناس بالاستيقاظ فى الليل وأمر بتعليق المصابيح على جميع الحوانيت وأبواب الدور والمحال المختلفة فى جميع طرقات القاهرة والفسطاط ، وخصص « العسس » للاشراف على تنفيذ هذه الاوامر فى أمانة ودقة ؛ وعوقب المخالف بالشدة •

ومنع الحاكم بأمر الله النساء الخروج بالليل بعد أن ازداد الفسق فى البلاد ، وكثرت جرائم هتك العرض والتحريض على ارتكاب المنكرات ، ولم يلبث أن أصدر أوامره عقب ذلك بمنع النساء الخروج الى الطرقات سواء بالليل أو النهار ولم يستثن من ذلك غير النساء المتظلمات للشرع أو الخارجات الى الحج أو المسافرات أو القابلات أو غاسلات الموتى أو نحو ذلك ومنع النساء من دخول الحمامات العامة ، وأمر الاساكفة بعدم عمل أخفاف لهن ، وأمر الباعة أن يجولوا بالأزقة والحارات للبيع للنساء وظل النساء يعانين هذه المحنة طيلة سبعة أعوام •

ادعاء الحاكم النبوة وغضبة الشعب :

وادعى الحاكم بأمر الله النبوة وأصدر بعض الفتاوى باسم

« الحاكم الرحمن الرحيم » وشاع خبر ادعائه للنبوة وتقرب اليـــه جماعة من الجهال ، فكانوا اذا لاقوه قالوا السلام عليك ياواحـــد يا أحد ايا محيى يا مميت ! وصارت له جمـــــاعة من الدعاة يدعون « أوباش الناس »

وازاء هذا كله ازداد غضب الشعب على الحاكم بأمر الله ، وأخذ الناس يسخرون منه ، ويستهزئون بحكمه ، ويستخفون بمحضره وكان المصريون موتورين منه فكانوا يدسون اليه الرقاع المختومة بالدعاء عليه ، والسب له ولاسلافه ، وبلغ من تهكمهم عليه أن صنعوا له تمثال امرأة من قراطيس نجف وأزرار ووضعوه في طريقه حتى يظن أنها امرأة تقدم اليه شفاعة أو مظلمة ، فتقدم الحاكم وأخذها من يدها فلما فتحها رأى فيها ماأثار الدماء في عروقه ، وما استعظم أن يجده في رقعة من الورق فالتفت وقال : انظروا هذه المرأة · من هي ؟ فقيل له انها مصنوعة من قراطيس ، فعلم أنهم سخروا منه ورانت الكآبة على وجهه وقفل راجعا لتوه الى القاهرة ·

تدبير مؤامرة اغتيال الحاكم :

وكانت ست الملك أخت الحاكم من أشد المتذمرين من حكمه ، وكانت تتحين الفرص للخلاص منه ، ولا سيما لان الحاكم كان يشدد الخناق عليها ، ويراقبها مراقبة دقيقة ، وينعى عليها سوء سلوكها وكثرة فضائحها ، وكان يهددها بانفاذ القوابل اليها لاستبرائها مما أوغر صدرها ، وزادها حنقا وغيظا فراسلت ست الملك ابن دواس — وكان من شيوخ قبيلة كتامة المغربية وأعيانها — مع بعض خدمها وخواصها وهي تقـــول له : لى اليك أمر لابد لى فيه من الاجتماع بك ، فاما تنكرت وجئتني ليـــلا ؛ أو فعلت أنا ذلك · فقال : أنا عبدك والأمر لك ، فلم يكفها هـــذا الكلام ، ولم يبعث الطمأنينة في نفسهـــا بل توجهت اليه ليلا في داره متنكره ولم تصحب معها أحدا ، فلما دخلت عليه قام وقبل الأرض بين يديها ووقف في خدمتها ، فأمرته بالجلوس ثم قالت : ياسـيف الدولة قد جئت في أمر أحرس به نفسي ونفسك والمسلين ، ولك فيه الحظ الافر وأريد مساعدتك فيه فقـــال : أنا عبدك · فاستحلفتـــه ، واستوثقت منه وقالت له : « أنت تعلم ما يقصده أخي منك وأنه

متى تمكن منك لم يبق عليك ، وكذا أنا ، ونحن على خطر عظيم . وقد أضاف الى ذلك تظاهره بادعائه الألوهية وهتكه ناموس الشريعة ، وناموس آبائه ، وقد زاد جنونه ، وأنا خائفه أن يثور المسلمون عليه ويقتلوه ويقتلونا معه ، وتنقضى هذه الدولة أقبح انقضاء فقال سيف الدولة بن دواس : صدقت يا مولاتى . فما الرأى ؟ قالت « اقتله فتستريح منه فاذا تم لنا ذلك أقمنا ولده موضعه وبذلنا الأموال وكنت أنت صاحب جيشه ومديره ، وشيخ الدولة القائم بأمره ، وأنا امرأة من وراء حجاب وليس غرضى الا السلامة منه ، وأن أعيش بينكم آمنة من الفضيحة » .

ثم أقطعته ست الملك اقطاعات واسعة من الارض ، ووعدته بالخلع و « المراكب السنية » فقال لها عند ذاك : مرى بأمرك . فقالت : أريد عبدين من عبيدك تثق بهما فى سرك وتتفق معهما في انجاز المهمة ، فأحضر ابن دواس عبدين وصفهما بالشهامة فاستحلفتهما ست الملك ووهبتهما ألف دينار ومجموعة من الثياب والخيل والاقطاعات ونحو ذلك وقالت لهما : أريد منكما أن تصعدا غدا الى الجبل فان الحاكم سيخرج فى نوبته ولن يبقى معه غير القرافى الركابى وربما رده . وسيدخل شعب الجبل وينفرد بنفسه فأخرجا عليه واقتلاه ، واقتلا القرافى والصبى ان كانا معه وأعطتهما ست الملك سكينين من عمل المغاربة تسمى الواحدة منهما « يافورت » ولها رأس كرأس المبضع الذى يفصد به الحجام ، ورجعت الى القصر وقد أحكمت الامر واتقنته ووقفت تراقب تنفيذ المؤامرة من قصرها المواجه لقصر الحاكم .

ولم يجد ابن دواس غضاضة من الاشتراك فى هذه المؤامرة اطاعة لامر ست الملك من ناحية ولعداوته الشخصية للحاكم من ناحية أخرى . ومما يظهر أثر هذه العداوة أن الحاكم استدعاه ذات يوم الى قصره وعول على قتله فقال له ابن دواس : قد خدمت أباك ولى عليكم حقوق كثيرة يجب لمثلها المراعاة وقد قام فى نفسى أنك قاتلى فأنا مجتهد فى دفعك بغاية جهدى وليس لك حاجة الى حضورى فى قصرك فان كان باطن رأيك مثل ظاهره فدعنى على حالى ، فانه لا ضرر عليك فى تأخرى عن حضور قصرك وان كنت تريد بى سوءا فلان تقتلنى فى دارى بين أهلى

وولدى يكفنـــونني ويتولونني أحب الى من أن تقتلنى فى وتطرحنى تأكل الكلاب لحمى » .

وقد عفا عنه الحاكم فى هذه المرة بيد أن آثار هذه الد لا تزال تقلقه وتؤرقه ؛ وتزلزل أقدامه زلزالا شديدا ؟ فلز للحاكم ثائرة حتى يتخلص منه كل التخلص ويسلمه الى المو

ولذلك نفر ابن دواس الى تنفيذ هذه المؤامرة بصدر رحـــب ونفس راضية وأمر العبدين بالاستعداد لتحقيقها .

نجاح المؤامرة :

وفى الليلة المحددة لتنفيذ الجريمة تأخر الحـاكم في الخروج والطواف ، وسبب ذلك أنه كان قد رأى في طالعه شيئا مشئومـا فصرح بذلك الى والدته ، وكانت تعبده ويعبدهـا حبا ، فتضرعت اليه الا يخرج فوعدها بذلك ، بيد أنه ظل فى سريره أرقا لا يزور النوم جفنيه ، ويلم بهالسهاد ، وشعر بضيق شديد فى صـدره وعبءنقيليرخى عليه ، حتى مضى من الليل ثلثـــاه ؛ وحينئذ لم يطق الحـــاكم صبرا ، ونهض ضجرا وانطلق الى خارج القصر ، وامتطى صهوة حماره الأشهب ، وكان يؤثر ركوب الحمير ولا سيما الشهباء منها وتبعه كعادته « أبو عروس » صـــاحب العسس أو «كبير الشرطة» ودقت له الطبول ونفخ فى الأبواق . ولما خـرج الحاكم من درب السباع طلب من صاحب العسس أن ينســحب كما رد نسيما صاحب التواليف ولم يصحبه ســـوى اثنين من الركابية الذين يصحبونه لمعالجة شئون الدواب التى يركبهـــا ؛ وشرع يتوغل فى شعاب جبل المقطم ، وقد حكى أبو عروس قبـــل أن يفارقه أنه صعد الجبل ووقف على تل كبير ونظر الى النجوم وقال : انا لله وانا اليه راجعون وضرب بيد على يد ، وقال : ظهرت يامشئوم ؛ ثم سار فى الجبل فعارضه عشرة فوارس من بنى قـــرة وقالوا : قد طال مقامنا على الباب وبنا من الفاقة والحاجةمانسأل معه حسن النظر والاحسان . فأمر الحاكم « القرافى » أن يحملهم الى صاحب بيت المال ويأمره أن يعطيهم عشرة آلاف درهم ، فقالوا لا : نعل مولانا ينكر تعرضنا له فيهذاالمكان فيأمر بنا بمكروه ،

ونحن نريد الامان قبل الاحسان ، فما وقفنا الا من الحاجه : فأعطاهم الامان ورد القرافى معهم ، وبقى هو والصبى . وسار الى شعب الجبل الذى جرت عادته بدخوله ؛ وقد كمن العبدان الاسودان له ، وقد قرب الصباح ، فوثبا عليه ، وطرحاه الى الارض فصاح : ويلكما ما تريدان ؟ فقطعا يديه من رأس كتفيه ، وشقا جوفه ، وأخرجا مافيه ، ولفاه فى كساء ؛ وقتلا الصبى : وحملا الحاكم الى ابن دواس بعد أن ثبتا الحمار ، فحمله ابن دواس مع العبدين الى أخته ست الملك فدفنته فى مجلسها ، وكتمت أمره ، وأطلقت لابن داوس والعبدين مالا كثيرا وثيابا وأحضرت خطير الملك صاحب ديوان الانشاء ، وعرفته الحال ، واستحلفته على الطاعة والوفاء وأوصته بمكاتبة ولى العهد ابن الحاكم وكان مقيما بدمشق فى هذه الآونة .

رواية تاريخية اخرى فى مصرع الحاكم :

وقد روى القضاعى فى مصرعه وجها آخر فقال : خرج الحاكم الى الجبل المعروف بالمقطم ليلة الاثنين السابع والعشرين من شوال هذه السنة (سنة احدى عشرة واربعمائة هجرية) فطاف ليله كلها ، وأصبح عند قبر الفقاعى ثم توجه شرقى حلوان « موضع بالمقطم » ومعه ركابيان فرد أحدهما مع نفر من العرب وأمر لهم بجائزة ، ثم عاد الركابى الآخر وذكر أنه فارقه عند قبر الفقاعى والقصبة وأصبح الناس على رسمهم ، فخرجوا ومعهم الموكب والقضاة والاشراف والقواد عند الجبل الى آخر النهار ثم رجعوا الى القاهرة ، ثم عادوا ففعلوا ثلاثة أيام متوالية ثم خرج مظفر صاحب المظلة ونسيم صاحب الستر وابن مسكين صاحب الرمح وجماعة من الاولياء من بنى كتامة والقضاة وأرباب الدولة فبلغوا دير القصر بالقرب من حلوان وأمعنوا فى الجبل ، فبينما هم كذلك بصروا بالحمار الذى كان يركبه الحاكم وقد ضربت يداه بسيف فقطعتا ، وعليه سرجه ولجامه ، فتتبعوا الاثر ، فاذا أثر راجل خلف أثر الحمار ، وأثر راجل أمامه ، فقصوا الاثر حتى أتوا الى البركة الى شرقى حلوان ، فنزلها بعض الرجالة

فوجد فيها ثيابه وهي سبع جبات مزررة لم تحل أزرارها وفيها أثر السكاكين فتيقنوا قتله ، وكان عمره ستا وثلاثين سنة وسبعة أشهر وكانت ولايته على مصر خمسا وعشرين سنه وشهرا واحدا .

وهكذا لقى الحاكم مصرعه ، وتم تنفيذ المؤامرة فى الروايتين ونجح المؤتمرون فى التخلص من الخليفة الظالم ويذهب بعض المؤرخين الى تبرئه ست الملك من دم أخيها ويعتمد هؤلاء المؤرخون على رواية عز الدين المسيحى فى تاريخه وقوامها ان رجلا ثائرا فى الصعيد أعلن حين القبض عليه أنه قتل الحاكم فى جملة أنفس ، وأظهر قطعة من جلد رأس الحاكم وقطعة من الفوطة التى كانت عليه ، ولما سأله المحققون عن كيفية تنفيذ الجريمة أخرج سكينا من جيبه وطعن بها نفسه فخر على الارض قتيلا .

ونحن لا يمكن أن نعتمد على رواية هذا الثائر ونصدق بما صرح به من اشتراكه فى تنفيذ المؤامرة وان كنا لا نكذب القصة التى رواها المسيحى من أساسها .

ولكن اجماع كثير من المؤرخين على اشتراك ست الملك فى تنفيذ هذه المؤامرة دليل على نيتها الاكيدة فى وضع حد لحياة أخيها .

ويروى صاحب النجوم الزاهرة أن القواد أرسلوا اليها وسألوها عنه عقب اختفائه فقالت : ذكر لى أنه يغيب سبعة أيام ، وما هنا الا الخير ، فانصرفوا وهم مطمئنون ولم تزل ترتب الأمور وتفرق الأموال ، وتستحلف الجند حتى جاء اليوم السابع فألبست أبا الحسن على بن الحاكم أفخر الثياب ، واستدعت ابن دواس وقالت له : المعول فى قيام هذه الدولة عليك ، وتدبيرها موكل اليك،وهذا الصبى ولدك،فابذل فى خدمتهما وسعك ، فقبل الارض ووعدها بالطاعة ؛ ووضعت التاج على رأس الصبى وهو تاج عظيم من الجواهر كان تاج المفرجد أبيه ولم يوجد فى خزانة أبيه مثله وأركبت أبا الحسن مركبا من مراكب الخليفة ، وخرج بين يديه الوزير وأرباب الدولة ، فلما صار الى باب النصر صاح الوزير : يا عبيد الدولة ! مولاتنا السيدة تقول لكم : هذا مولاكم فسلموا عليه فقبلوا الارض بأجمعهم وارتفعت الاصوات بالتهليل

والتكبير ولقبوه الطاهر لاعزاز دين الله وأقبل الناس عليه أفواجا فبايعوه ·

وقد نكون هذه المؤامرة على جانب كبير من القسوة والعنف مما لا تسنده القوانين الموضوعة ولكن قسوة الحاكم وظلمه . وسفكه للدماء ، وتقطيعه للاشلاء ، وازهاقه للارواح كانت تتطلب تدخلا من الشعب حتى يقف عند حده ، ولا يتطاول فى صلاته وغيه ·

وهكذا نجحت هذه المؤامرة التى دبرت فى الخفاء ، وأسدل الستار على حياة حاكم ظالم صربت بظلمه الامثال ، وتلهى بذكره السابلة والركبان ·

مؤامرة اغتيال صلاح الدين وفشلها : ـ

أما المؤامرة الثانية التى نعرضها فى هذا البحث فهى المؤامرة التى دبرت فى العصر الايوبى لقتل صلاح الدين وقد شاء لها القدر أن تبوء بالفشل الذريع ، فعقب انسحاب الفرنج من مصر فى ١٨ يناير سنة ١١٦٩ م بعد أن أدركهم اليأس من الاستيلاء عليها وخانهم التوفيق فى وضع أيديهم على خيراتها ، أحس شاور أن الميدان قد خلا له وأنه أصبح قاب قوسين أو أدنى من النصر ، ونظر حوله فوجد شيركوه وصلاح الدين فى جيش لجب جبار جرار ، فأدركه الروع ، وخاف أن يبطش به الجيش ذات يوم ويقضى عليه قضاء مبرما ·

وأخذ شاور يقلب وجوه الرأى وأخيرا اهتدى الى أن يقيم وليمة ويدعو اليها شيركوه وصلاح الدين وأمر رجاله بالاستعداد للوليمة وتجهيز الاطعمة وكان ابن شاور على علم بهذه المؤامرة منذ بدايتها فنصح أباه بقوله : لأن نقتل ونحن مسلمون والبلاد اسلامية ، خير من أن نقتل وقد ملكها الافرنج فانه ليس بينك وبين عودهم الا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه » ·

ولكن أخبار هذه المؤامرة وصلت صلاح الدين فأراد أن يدافع عن نفسه ويتمثل بقول القائل : اقتل عدوك قبل أن يقتلك فاتفق مع عز الدين جرديك على قتل شاور وأخبروا سعد الدين

شيركوه بذلك فنهاهم ولكنهم بينوا له الشر المستطير الذى يهددهم اذا لم يبادروا باستئصال الداء قبل استفحاله ، وحدث أن كان أسد الدين فى زيارة قبر الامام الشافعى فانتهزوا هذه الفرصة وانقضوا على شاور • وألقوه عن فرسه وهرب أصحابه وآخذ هو اسيرا • ولم يشاءوا أن يقتلوه بغير اذن من شيركوه فسجنوه فى خيمة وأقاموا الحراس لحراسته خوفا من فراره ، فلما علم شيركوه بذلك عاد مسرعا ولم يستطع الا أن يوافق على بقية فصول القصة لا سيما أن العاضد لدين الله الخليفة الفاطمى بمصر أرسل الى أسد الدين يطلب منه رأس شاور ويحثه على قتله ،وتتابع الرسل فى ذلك فقتلوه وحملوا رأسه الى القصر •

وهكذا يشاء القدر ان تموت هذه المؤامرة التى دبرها شاور ضد صلاح الدين وأسد الدين فى مهدها ، يشاء القدر أن يرتد السهم الى نحر مدبريها ويضع صلاح الدين يديه على خيوط المؤامرة قبل تنفيذها ، تعتزم على التخلص من رأس الافعى أو الراس المدبرة ، وتنتهى فصول المؤامرة بمصرع شاور ولم يعد للفرنج أعوان فى مصر ، ولذلك عمت الفرحة فى البلاد بل ان المؤرخ العصامى فى « سمط النجوم » يقول ان بغداد طربت لخروج الفرنج من مصر وأغلقت الاسواق وفرح المسلمون فرحا شديدا •

مؤامرات أخرى من عملاء الاستعمار ضد صلاح الدين

ولم يشأ اعوان الفرنج واذناب الاستعمار أن يجعلوا هذه المؤامرة خاتمة المؤامرات ضد حياة صلاح الدين • فدبروا مؤامرة لاغتياله وأرسل شيخ الحشاشين سنان أحد جواسيسه ليقتله غيلة وعدوانا ، غير أنه لم يكد يصل الى باب خيمته حتى انقض عليه أحد أنصار صلاح الدين فأرداه قتيلا .

وحدث فى أثناء حصار « اعزاز » بالاقليم الشمالى أن كان صلاح الدين يحضر الى خيمة أحد الامراء على مقربة من المنجنيقات لمشاهدة الآلات • وترتيب المهمات ، وحض الرجال والحث على القتال فقفز عليه أحد الحشاشين ، وكانوا طائفة دينية خرجت على طاعة صلاح الدين بسكين فعاقته صفائح الحديد التى كان

يريديها فوق رأسه فمنعت الطعنة أن تصيبه بسوء غير أن المدية لفحت خده فخدشته فأمسك صلاح الدين بتلابيبه وجذبه من شعره ، ووقع عليه وركبه وهنا أدركه سيف الدين يازكوج أحد أتباع صلاح الدين فقضى عليه في الحال . فهجم حشاش آخر على صلاح الدين فاعترضه الأمير داود بن منكلان وصده غير أن الحشاش أصاب الأمير في جنبه . فلما رأى حشاش ثالث ما أصاب زميليه استأسد وانقض على صلاح الدين . غير أن الامير على بن أبي الغواري صده وأمسكه من تحت أبطه فشل حركته وجذب يديه الى الخلف حتى لا يمكنه من الضرب ، فصاح الحشاش : « اقتلوني معه فقد قتلني وأذهب قوتي وأذهلني » فطعنه أحدهم طعنة بسيفه . فخر على الارض يتخبط في بركة من الدماء وهنا دخل الى المعركة فدائي من الحشاشين غير أن السوقة لم تكد تلمحه حتى انقضوا عليه انقضاض الأسد على الفريسة وقتلوه شر قتلة .

أما صلاح الدين فانه دهش من هذه الحوادث التي تجرى أمام بصره غير أنه لم يفقد ثباته ولم تضعف سيطرته على اعصابه، وامتطى صهوة جواده ، وجاء الى سرادقه بصوت جهوري وزئير قسوري — على حد تعبير أبي شامة والدم ينزف من خده ثم ضرب حول سرادقه برجا من الخشب وأبعد عن خدمته من لا يثق في ولائه .

واشتدت بلبلة العرب لهذا الحادث وراجت بعض الشائعات عن مقتله غير أنه كان يقطع دابرها بالظهور أمام الناس حتى يطمئنهم على نفسه ويرد الثقة الى نفوسهم وقد أرسل القاضي الفاضل الى أخيه العادل في مصر كتابا يخبره فيه بنجاة صلاح الدين جاء فيه « السلامة شاملة ، والراحة بحمد الله للجسم الشريف « الناصرى » حاصلة ولم ينله من الحشيش الملعون الا خدش قطرة من قطرات دم خفيفة انقطعت لوقتها واندملت لساعتها والركوب على رسمه وحصار « اعزاز » على حكمه وليس في الأمر بحمد الله — ما يضيق صدرا ، ولا ما يشغل سرا » .

وهكذا باءت هذه المؤامرة الدنيئة بالفشل الذريع واستحق مرتكبوها القصاص من غير شك اذ أجمعت الأمة على عدله

وانصافه وتاييده وتعضيده ولم ينصرف عنه الا كل طماع اشر يبحث عن مصلحته ويهدف الى تحقيق نواياه الخبيثة .

وقد أثبتت الأيام أن صلاح الدين لم يتحول قيد شعرة عن الدفاع عن العالم الاسلامى والشرق العربى ، ووقف كالطود الشامخ فى وجه الفرنج ، ولما ثار فردريك برباروسا امبراطور النمسا ورتشرد قلب الأسد ملك بريطانيا وفيليب اغسطس ملك فرنسا ، وارسلوا كتائبهم واساطيلهم لمحاربة صلاح الدين لم يتزعزع ايمانه بالنصر وظل يحصد بسيفه رؤوسهم حتى تم له النصر والفتح المبين .

الفصل الرابع

مؤامرات من العصر الحديث

لقيت الحملة الفرنسية عند نزولها أرض الكنانة مقاومة شعبية مستميتة ، في الوجه البحرى ، والوجه القبلى . وهب الشعب المصرى في وجه المحتلين يطالب بحقه في الحريةوالسيادة فاشتعلت ثورة في القاهرة في ٢١ أكتوبر عام ١٧٩٨ ولم ينقض على دخول الفرنسيين سوى ثلاثة أشهر ، وتضافرت القوى جميعا لرد المغتصب الغاشم . ولم تلبث أن شبت ثورة أخرى ، واقيمت المتاريس وحفرت الخنادق ، وغلقت أبواب المدينة ، وتطوع الناس لحراستها ليل نهار ، وظهرت الحركة بأجلى صورها ، واروع مظاهرها في مدينة القاهرة وحى بولاق حيث أنشأ الناس مصنعا للبارود في الخرنفش ، وأقبل السيد المحروقى كبير التجار ، والسيد « عمر مكرم » نقيب الأشراف وسائر الأعيان والتجار على بذل الأموال وتحمل النفقات واعداد المآكل والمشارب ، وكذلك جميع أهل مصر ومضى كل انسان يجود بنفسه ويجمع ما يملكه ، وأعان بعضهم بعضا « ودفعوا ما في وسعهم وطاقتهم من المعونة » على حد تعبير المؤرخ عبدالرحمن الجبرتى .

وتعاون الأقباط والمسلمون على رد قوى الظلم والطغيان ، وقام أكابر القبط أمثال جرجس الجوهرى وفليتوس ، وملطى بنصيبهم من الجهاد والتبرع بالاموال .

وغادر نابليون مصر بعد واقعة أبى قير البرية في شهر أغسطس عام ١٧٩٩ بعد أن عين كليبر قائدا للحملة في مكانه ، وترك أمور الحكم في يده ، فأخذ يحرض جنده على الحرب والقتال ، ولا سيما بعد أن رفضت الحكومة البريطانية الموافقة على « اتفاقية العريش » فنادى في جنوده « أيها الجنود لا جواب لنا عن هذه الوقاحة الا النصر فهملوا الى الحرب .. »

وبينما هو يؤيد سياسة العنف والارهاب فى البلاد اذ تقدم اليه رجل سورى فى داره بحديقة الازبكية وكان يتنزه مع أحد المهندسين الفرنسيين فى البستان المجاور لداره ، فطعنه بخنجره عدة طعنات فأرداه قتيلا . وكان كليبير يومئذ يبلغ السابعة والأربعين وقد نقلت أكثر المراجع الأوروبية تفصيل هذا الحادث من محاضر المحاكمة، كماتعرض لتفاصيله المؤرخ الكبير عبدالرحمن الجبرتى فى كتابه المعروف باسم « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » .

وجملة القول أن كليبر كان يسير مع كبير المهندسين الفرنسيين فى منافس البستان الذى يحيط بداره فى حديقة الأزبكية ، وضربه بخنجر كان قد أعده فى يده اليمنى ، أربع ضربات متوالية ، فشق بطنه ، وسقط كليبر على الأرض صارخا فصاح رفيقه المهندس ، وهم بمساعدته ، ولكن الحلبى بادره بعدة ضربات بالخنجر ، ولاذ بالفرار ، فسمع العسكر القائمون خارج الباب صرخة المهندس فدخلوا مسرعين فوجدوا كليبر طريحا على الأرض ، ولا يزال فيه الرمق من الحياة ، وقد ولى قاتله الأدبار ، فانزعجوا وضربوا طبلهم، وخرجوا مسرعين، وجروا فى كل ناحية للبحث عن القاتل ، واجتمع رؤساؤهم ، وأرسلوا الجنود الى الحصون والقلاع ، خشية من ثورة الشعب ، وأقاموا المدافع وجهزوا القنابل ، واستعدوا لساعة الصراع

وشرع الجند الفرنسيون يبحثون عن القاتل حتى وجدوه منزويا فى البستان المجاور لبيت كليبر المعروف «بغيط مصباح» فى ذلك الحين ، وكان جاثما بجوار جدار متهدمة ، فألقوا القبض عليه ، وعند سؤاله عرفوا أنه من أهل الاقليم الشمالى ومن مدينة حلب ، واسمه سليمان ، ولما سألوه عن محل اقامته أخبرهم .. انه يأوى ويبيت فى الجامع الأزهر ، ثم سألوه عن رفقائه ومعارفه فدلهم على أسمائهم ، فأمر الفرنسيون باحضار الشيخ عبد الله الشرقاوى ، والشيخ أحمد العريشى القاضى ، وأرغموهما على احضار الذين ذكر سليمان الحلبى أسماءهم ، بعد أن حجزتهم السلطات الفرنسية الى منتصف الليل .

وقد تم القبض على ثلاثة منهم ، ولم يجدوا الرابع ، فأمرت

السلطات الفرنسية بحبسهم فى بيت قائمقام فى الأزبكية ، وشرعوا فى محاكمتهم وسألوهم على انفراد ومجتمعين .

وقد اثبت الطبيب الشرعى عند معاينة الجثة أن كليبر ضرب بسلاح مدبب ، وأنه أصيب بأربعة جروح . الاول منها تحت الثدى الأيمن ، والجرح الثانى أسفل الجرح الأول والثالث فى الذراع اليسرى ونفذ من الناحيتين ، والرابع فى الخد الأيمن .

وأثبت الطبيب الشرعى أيضا أن المهندس «بروتاين» الذى كان يرافق كليبر مصاب بستة جروح من السلاح ذاته الذى استخدم فى قتل كليبر وأن الجرح الأول فى جانب الصدغ والثانى فى عظمة الخنصر والثالث بين الضلوع اليسرى . والرابع فى الشدق الأيسر والخامس فى الصدر ، والثالث سقط وصفه فى عبارة المؤرخين ، وكان ترتيبه الرابع فى تاريخ الجبرتى .

ولما عقد المجلس العسكرى — لمحاكمته — أولى جلساته سئل المتهم عن اسمه وسنه ومسكنه وصنعته فأجاب أنه يدعى سليمان ومن أهل الشام وانه فى الرابعة والعشرين وصنعته كاتب عربى ومسكنه فى حلب ، فسئل عن المدة التى قضاها فى مصر فأجاب أنه وصل اليها منذ خمسة اشهر فى قافلة ، كان شيخها يدعى سليمان بوريجى وسئل عن ملته فأجاب أنه على ملة محمد وأنه كان يسكن قبل ذلك ثلاث سنوات فى مصر . ومثلها فى مكه والمدينة ، وسئل هل يعرف الوزير الأعظم فأجاب انه ابن عرب . ومثله لا يعرف الوزير الأعظم ، ثم سئل عن معارفه فى مصر فأجاب انه لا يعرف أحدا ، وأكثر جلوسه فى الجامع الازهر . وأن هناك أناسا كثيرين يعرفونه ويشهدون بحسن سلوكه ، ثم سئل هل ذهب فى صباح الحادث الى الجيزة فأجاب بالايجاب وقال انه كان يريد أن يعمل كاتبا عند أحد الاشخاص غير أنه « قسم له نصيب » وسئل عن الناس الذين كتب لهم أمس فأجاب أن جميعهم سافروا ولا يعرف أسماءهم ، وعندئذ سأله المحقق كيف يعرف أنهم سافروا ، وفى الوقت ذاته لا نعرف أسماءهم ، فأجاب أنه لا يستطيع أن يتذكر أسماءهم ، فسأله عن آخر شخص كتب اليه ، فأجاب انه يسمى محمد مغربى السويسى وهو بائع عرقسوس وأنه ما كتب لأحد فى الجيزة ، ثم سألوه كيف

قبضوا عليه فى بستان كليبر فأجاب انه لم يقبض عليه فى الحديقة انما قبض عليه عرضا فى الطريق ، وهنا طلب منه المحقق أن يقول الحق لأن الضباط الفرنسيين قبضوا عليه فى الحديقة ، فاعترف بذلك ، وسئل عن سبب اختبائه فقال انه لم يكن مختبئا بل كان جالسا فيها لان الخيالة قد سدوا الطريق ولم يكن يستطيع ان يبرح المكان الى المدينة ، ولم يكن يحمل سكينا ، ولا يعرف ان كان هناك سكين فى الحديقة ، فسئل لأى سبب كان يتبع كليبر منذ الصباح فأجاب انه كان يريد أن يراه فحسب ، فسئل هل يملك قطعة من القماش الأخضر نزعت من ثوبه فوجدت ملقاة فى الحديقة فأجاب أنها ليست ملكا له ، فسئل هل تحدث الى أحد فى الجيزة وأين بات ليلته ؟ فقال انه لم يتكلم مع أحد الا لأجل شراء بعض الحاجات وأنه نام فى أحد جوامع الحديقة ، وهنا أشار المحقق الى الاصابات الظاهرة فى رأسه وقال انها تثبت ادانته لأن المهندس « بروتاين » الذى كان يصاحب كليبر كان يحمل عصا وضربه فوق رأسه فنفى سليمان الحلبى هذا الكلام وقال انه لم يجرح الا ساعة القبض عليه .

وأثار هذا القول غضب المحقق ، فأمر « سارى عسكر » بضربه ، حتى طلب العفو فكف الجندى عن الضرب ، وفلت وثاقه بعد أن كان مقيدا ، وأخذ يروى القصة من أولها ، فاعترف بأنه لم يحضر الى مصر الا منذ واحد وثلاثين يوما ، وانه حضر من غزة فى ستة أيام على هجين ، وكان فى نيته قتل كليبر ، وأنه أرسل من قبل (أغات الينكجرية) الذين طلبوا منه اغتيال كليبر ، وانه لم يتصدر له أحد فى مصر ، وانما سكن فى الجامع الازهر حيث التقى بالسيد محمد القزى ، والسيد احمد الوالى ، والشيخ عبدالله الغزى ، والسيد عبد القادر الغزى فأطلعهم على مراده ، وأخبرهم بنيته ، ولكنهم أشاروا عليه بالعدول ، واقترحوا عليه أن يطلب من المحرضين اختيار أحد سواه ، وأنه قصد الى الجيزة ، ثم ذهب الى دار كليبر بعد ذلك حيث التقى ببعض « النواتية » فسألهم عنه فاستفسروا عن السبب فى ذلك ، فأبدى لهم رغبته فى محادثته ، فقالوا له ان كل ليلة ينزل الى الحديقة وفى صباح الحادث وجد كليبر سائرا فى المدينة ثم قصد الى البستان فتبعه حتى اغتاله .

وتعددت محاكمة سليمان الحلبى ، كلما ظهر شيء جديد في القضية أو صرح أحد الشهود ببعض الوقائع وأخذت شهادة الجنود الفرنسيين الذين القوا القبض عليه ، كما نودى على أصحاب الاسماء الذين ذكرهم الحلبى فى أقواله ، وكلمابدأ من أقوالهم مايتطلب الرجوع الى سليمان الحلبى عادوا اليه بالتهديد والوعيد ، والويل والثبور ، وقال فى التحقيق الثالث أنه حضر من غزة مع قافلة تحمل صابونا وتبغا وان القافلة كانت خائفة من النزول فى مصر فقصدت الى ريف يسمى « الغيطة » من ناحية الألفية ، حيث استأجر حمارا من احد الفلاحين وحضر الى مصر، ولكنه لا يعرف الفلاح صاحب الحمار ، ثم ان أحمد أغا وكبير أغوات حلب وكلوه فى قتل كليبر وأوصوه ان يسكن فى الجامع الأزهر ، وألا يبوح بسره لاحد بل ينتهز الفرص لتنفيذ مؤامرته لأن هذه المؤامرة تتطلب السر والذكاء ، ولكنه عند حضوره الى مصر اجتمع بالمشايخ الأربعة الذين ذكرهم وقد حاولوا تغيير رأيه ، حتى كاشفهم بما فى نفسه لأنهم من ابناء بلدته وقد اعترف للمحقق أنه يستطيع أن يعرف الخنجر الذى استخدمه ، وان أحدا لم يعطه اياه ، وانما قصد بنفسه الى سوق غزة ، واشترى أول سلاح وجده ، وقد مناه الأغوات أن يساعدوه بكل ما يحتاج اليه الامر ، فسأله المحقق هل هو فقط الذى وكلت اليه هذه المهمة فقال : أظن كذلك لان الكلام حصل سرا بينه وبين الأغوات

وتلى على المجلس العسكرى تبليغ المهندس « بروتاين » الذى كان يصاحب كليبر وقت الحادث وجاء فيه أنه كان يتمشى تحت التكعيبة الكبيرة الموجودة فى حديقة كليبر ، وتطل على بركة الازبكية فأبصر رجلا يلبس الملابس العثمانية وهو يخرج من بداية التكعيبة بجوار الساقية وكان فى ذلك الوقت يبعد بعض الشيء عن كليبر لينادى أحد الغفراء وفجأة انتبه فوجد الرجل المذكور يضرب كليبر بالسكين عدة مرات فارتمى على الأرض وفى ذلك الوقت سمع كليبر يصرخ ، فهرع لانقاذه ولكن الرجل ضربه بنفس السكين الذى اعتدى به على كليبر وهنا فقد المهندس وعيه غير أنه يعرف أنه مضت ست دقائق قبل أن يسعفه أحد .

وقال أحد الجنود الطوبجيةالملازمين لدار كليبر واحد الذين

اشتركوا فى القبض عليه ويدعى « روبرت مسكو » انهم وجدوه فى الحديقة التى يوجد بها الحمامان الفرنسيان الملصقان بحديقة كليبر وانه كان مختبئا بين جدران الحديقة المتهدمة وان الحيطان المذكورة كانت ملطخة بالدماء فى بعض النواحى ، وان سليمان نفسه كان ملطخا بالدماء وانهم وجدوا السكين ملقى فى الحديقة بعد ساعة من ارتكاب الحادث .

ونودى على شيوخ الأزهر الأربعة ؛ وسئلوا جملة من الأسئلة وكان سليمان قد أفضى اليهم بعزمه على قتل كليبر . وحاولوا ان يقحموا اسم الشيخ عبدالله الشرقاوى شيخ الأزهر فى تحريضه على ارتكاب الجريمة ولكنهم لم يجدوا الدليل القاطع على ذلك.

وهكذا تأكدت الادلة والقرائن على نسبة التهمة الى سليمان الحلبى فأصدر المجلس العسكرى حكمه بأن تحرق يده اليمنى ثم يجلس على الخازوق لحين تأكل رمته الطيور ، وهكذا يكون فوق تل العقارب المعروف بالنصارية (١) .

كما أدان المجلس العسكرى الأربعة من مشايخ الأزهر ، لانهم لم يخبروا السلطات الفرنسية بما سمعوه من سليمان او عرفوه من عزمه على اغتيال كليبر .

وكان الشيخ عبدالله الغزى فى الثلاثين من عمره والشيخ محمد الغزى فى الخامسة والعشرين ؛ أما السيد أحمد الوالى فقد ذكر أنه لا يعرف سنه ، والشيخ عبد القادر الغزى حوكم غيابيا لانه لاذ بالفرار .

وقد نفذ حكم الاعدام فى المشايخ الثلاثة قبل اعدام سليمان وتحت سمعه وبصره .. فأحرقت جثثهم ووضعت رؤوسهم على نبابيت ليطاف بها فى شوارع المدينة .

وقد أغلق الجامع الأزهر بعد أسبوع من مقتل كليبر لأن القاتل كان قد قضى فيه فترة من الوقت قبل اقتراف فعلته ، ولعله بث فكرة التذمر والثورة فى نفوس الازهريين الذين كانوا

---

(١) هكذا فى الجبرتى والمظنون أن هذا المكان بجوار القلعة

يستعدون لساعة الخلاص بصبر نافذ ، ويتأهبون للانقضاض على الفرنسيين لاخراجهم من البلاد وقد ظل الأزهر مغلقا عاما كاملا ، « وسمروا أبوابه من جميع الجهات » على حد تعبير الجبرتي الى أن أعيد فتحه عقب خروج الفرنسيين من مصر أى فى ٢ يونيو عام ١٨٠١ .

وليس من شك فى ان الصورة التى تم فيها تنفيذ العقوبة كانت من البشاعة بمكان ، والعقوبة انكى بالنسبة الى المشايخ الأربعة . ولو اننا درسنا الظروف التى تمت فيها الجريمة اوجدناها ظروفا غير عادية . انما هى ظروف سياسية عصيبة وكانت الحرب دائرة بين الفرنسيين المغتصبين، والأهالى الآمنين، وكانت المقاومة الشعبية متمثلة فى كل مكان من شمال الدلتا الى جنوب الصعيد ، أضف الى ذلك أن الفرنسيين استخدموا أبشع وسائل الارهاب والتعذيب ضد الاهالى فقتلوا الشيوخ ، ورملوا النساء ، ويتموا الاطفال ، ونشروا الرعب فى كل مكان ، وليس صحيحا آن ياسين أغا حرضه بأربعين قرشا على قتل كليبر فهو مصرى الشعور ، أزهرى الثقافة يحس باحساس الوطنية بل القومية العربية ضد الظلم والطغيان ، وليس هذا الا توجيها لعاطفة موجودة اصلا .

هيئة قناة السويس

معمل الابحاث الهيدروليكية

لا تألو الادارة العربية المشرفة على قناة السويس جهدا فى العمل على رفع امكانيات المرفق للاحتفاظ به على المستوى الذى يسمح له بمسايرة تطور حركة بناء السفن فى العالم .

وفى سبيل تحقيق هذا الهدف ، انشأت الهيئة معملا للابحاث الهيدروليكية بمدينة الاسماعيلية ، حيث مقرها الرئيسى ، لبحث ودراسة كل ما يتعلق بشئون الملاحة فى القناة . ويجرى العمل حاليا على قدم وساق لتزويد المعمل بما يتطلبه من اجهزة ومعدات حتى يتيسر افتتاحه فى اقرب وقت ممكن .

ويجدر بالذكر انه قد اجريت بعض التجارب فعلا صباح يوم الثلاثاء ١٨ اكتوبر ١٩٦٠ على عربتى الدليل لسحب السفن فبلغت سرعة احداهما خمسة امتار فى الثانية . وامكن التحكم فيها اما باليد او بجهاز الكترونى ، وبلغت سرعة الاخرى ١ر٥ مترا فى الثانية وامكن التحكم فيها باليد فقط . وقد اقتضت هذه التجارب استعمال نماذج للسفن التى تعبر القناة مع كل من العربتين وسوف تؤدى التجارب التى أجريت لدراسة تأثير الأمواج وقوة الدفع والمقاومة على ضفتى القناة الى تحديد السرعة القصوى التى يمكن السماح بها لعابرات القناة .

وحرصا على ان تأتى هذه التجارب بالنتيجة المرجوة بالسرعة والدقة المطلوبتين انشىء المعمل فى منطقة القناة نفسها لا فى مدينة جرينوبل بفرنسا كما كان الحال ايام الشركة المنحلة التى كانت تستنفد الوقت والجهد والمال على تجارب فى مكان يبعد آلاف الأميال عن موقع المرفق .

١٥٧ شارع عبيد ـ روض الفرج
تليفون ٤٠٥٨٧ ـ ٤٠٧٥٣ ـ ٤٠٨١٤ ـ ١٠١٢:

١٥٧ شارع عبيد ـ روض الفرج
تليفون : ٤٠٥٨٨ ـ ٤٠٨١٤ ـ ٤٠٧٥٣ ـ ٤١٠١٢

العــدد ١٧٨ الثمن ٥ قروش